ANCORA IMPARO



العصور

فبراير ١٩٣٠ اعرف نفسك بنفسك - فيثاغورس مجلد ٦ العدد ٣٠

من بقاء الاصلح

الى بقاء الاطلح

From the Survival of the Fittest,
To the survival of the unfit.

في سنة ١٨٧٨ نشر اسباني من رجال المستعمرات المشتغلين بالعلم هو دكتور شيل ى مارانجو مؤلفا عن جزر الكناري. غير أن الدكتور شيل لسوء حظه قد ضمن مقدمة الكتاب استعراضا لخص فيه نظرية النشوء، وذكر بعض البراهين التي عثر بها في جزيرة كناري مما كانه في الازمان القديمة من بربرية الانسان البدائي. ولقد فزعت السلطات الكنيسية، وعلى رأسهم الأسقف «يدوت» من الاستكشاف الجديد، معلناً في حماسه أنه «خطأ فاضح بعيد عن التقوى». ولقد صدرت الأوامر الى كل الذين كانوا يحوزون نسخا من الكتاب أن يسلموا كل النسخ التي لديهم للسلطات الكنسية كما طرد المؤلف من حظيرة الكنيسة

على هذه الصورة كانت العقلية الكنسية في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر الذى قيل بأنه عصر العلم، كما كان القرن الثامن عشر عصر التأمل. عصر حظر فيه على

عالم من العلماء أن يقول كلمة يظهر بها رأيه فى مذهب على بعد أن نشر مذهب النشوء فى أوروبا بنيف وربع قرن من الزمان على القواعد التى وضعها داروين ، وبعد أن اثبت مارش فى أمريكا صدقه فى الحفريات وفون باير فى ألمانيا صدقه فى الأمبريولوجيا ، والاستاذ هكسلى فى انجلترا صدقه فى التشريح .

غير أن الصور العدائية التى ظهر بها اللاهوت فى أواخر القرن الفارط يمكن أن تعتبر آخر درجات الحمى التى أنتابت أهل الأديان ازاء العلم . والدليل على صحة هذا القول أن جامعة واشنطون ـ وكانت حديثة التكون فى أواخر القرن التاسع عشر ـ قد أعلنت من ناحيتها أقوالا تؤيد نظرية النشوء الجديدة كما أن جامعات كثيرة فى العالمين القديم والحديث ، قد تقبلت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى ، وأكب رجالها على المذهب يدرسونه بما يستحق من العناية والتقدير . وفضلا عن هذا فان من الظاهر الجلى أن رجال الكنيسة العظام لم يقفوا فقط سير المعركة التى دارت ضد العلم بل عملوا فى أمانة و اخلاص لكى يضعوا قواعد جديدة للتوفيق بين الناحيتين .

ومهما يكن من أمر العوامل التى يمكن اضافتها الى الانتخاب الطبيعى ـ ولقد سلم داروين نفسه بأنه من الممكن أن تكون هنالك عوامل أخرى تؤثر فى نشوء الانواع ـ فان نظريته فى النشوء الكونى ونشوء الصور الحية قد وضعت و ثبتت قواعدها ، كما أن نظرية الخلق المستقل القديمة قد اضمحلت وفنت من عالم الفكر الانسانى . ولقد تبدل الانسان منها بما أوحى العلم الحديث من تصورات ثابتة أبعد مدى وأنبل قصداً ، فتحت الباب لتكوين فكرة فى « القصد والغاية » اجل من كل الفكرات التى كونها التصور اللاهوتى على مدى الازمان (١)

***

هذه الصفحات القصيرة تعرفك شيئاً عن تاريخ الصراع بين اللاهوت والعلم أزاء مذهب النشوء ، وتعرفك فوق ذلك أن المعركة كانت حامية الوطيس شديدة المراس . وليس من قصدنا أن نمضى هنا فى سرد الاسباب التى سببت هذا الصراع

---

(١) راجع كتاب بين الدين والعلم الذى ظهر حديثا عن دار العصور ص ٣١١ و ٣١٢

والحالات التي قامت في ذلك العصر الذي تحددت فيه نظرية النشوء على الصورة التي صبها فيها العلامة داروين ، بل مهدنا بذلك الكلام في مشكل اجتماعي ظهرت بوادره في المدنيات التالية . وكانت آثاره السوأى . تزداد سوءا كلما خطت المدنيات إلى الأمام خطوة بعد أخرى . فكانت ظواهر هذا المشكل الاجتماعي في المدنيات البدائية أقل ظهوراً منها في المدنيات المتوسطة كمدنية المصريين والكلدان ، ثم زاد خطرها في مدنية اليونان والرومان والعرب ، وهي في مدنيتنا الحديثة أبين صورة وأنفذ أثراً منها في كل المدنيات الأخرى . ذلك المشكل الاجتماعي ينحصر في أن الانسانية قد قلبت الآية من قانون طبيعي هو بقاء الأصلح ، فظهرت في بعض نواحي المجتمع عاملة جادة لاحياء سنة تخالف هذه السنة الطبيعية ، وبهذا أصبح الطابع الجديد في المجتمع انتقال من الخضوع إلى سنة بقاء الأصلح ، إلى الاستمتاع بثمرات حالات متراوحة غير مستقرة ، تعمل أبداً على بقاء الأطلح من أفراد المجتمع وطبقاته .

إن أول ما يستلفت نظر الباحث في تاريخ التطورات التي انتابت المذهب الداروني الحديث الذي يتلخص في النشوء بالانتخاب الطبيعي ، أن هذا المذهب لم يكد ينفض عنه غبار الطفولة في أواخر القرن الفارط ويستقر على أساس طبق فيه على عالم الحياة المادية ، حتى أخذ العلماء يطبقونه على عالم الاجتماع . لهذا يجب علينا أن نوجز شرح النواحي التي طبق فيها المذهب على الاجتماع الانساني ليكون هذا الشرح أساساً لما سوف نستنتج من هذا البحث .

* * *

نشر العلامة « سبنسر » الفيلسوف المعروف ، قبل أن يظهر كتاب أصل الانواع بتسع سنوات ، في فصول اختتم بها كتابه « التعادل الاجتماعي » فكرة في تعليل الجماعات الانسانية على قاعدة أن تكوين الجماعات انما يرجع إلى طبيعة بشرية تنزع بالانسان إلى المكافأة بين طبائعه وحالات الحياة المحيطة به . وكانت هذه الفصول النواة التي كبرت فيما بعد فصارت الأجزاء الضخام التي أخرجها سبنسر في صورة فلسفة انسيكلوبيذية في النشوء سماها الفلسفة التركيبية . وبعد ذلك بخمس سنوات ،

وقبل ظهور كتاب أصل الأنواع بأربع سنوات ، تناول سبنسر فى الطبعة الاولى من كتابه «مبادىء علم السيكولوجيا» تعليل الحياة مادية ونفسية ، وعزاها إلى أنها عبارة عن تقابل بين الصلات الداخلية فى الاحياء ، وبين الصلات الخارجية للاشياء المحيطة بها . وفى سنة ١٨٥٧ - أى قبل ظهور داروين بكتابه الخالد بسنتين - نشر سبنسر فى مجلة « وستمنستر » مقاله الكبير المعروف « الارتقاء : سننه وأسبابه » الذى عبر فيه عن مذهب جزئى فى النشوء ، معلناً أن النشوء هو النظام الكلى الذى يخضع له الكون وكل ما فيه من صور الحياة والجماد

إذن فقد عرف سبنسر أن النشوء يتلخص فى أمرين : مكافآت وتغايرات . ولقد تبع هذه الابحاث نشر كتاب أصل الانواع الذى تناول نشوء الصور الحية بالانتخاب الطبيعى . غير أن المعركة لم يحم وطيسها إلا سنة ١٨٧١ عندما نشر داروين كتابه « أصل الانسان » . ذلك لان مذهب الارتقاء الانسانى أخذ يفهم فى الدوائر العلمية على أساس من التصورات الثابتة المقرونة بالاستقراء الواقعى من المشاهدات الطبيعية . ولقد أدرك الفيلسوف سبنسر مقدار ما فى سنة الانتخاب الطبيعى من أثر فى المجتمع الانسانى ، كما أدرك داروين أن تطبيق المذهب على الجمعية البشرية يحتاج إلى تفسير كيف أن التناحر على الحياة بين الجماعات - على ما فيه من صور القسوة والشدة - ينتج فى النهاية ثماراً من الآداب العليا . غير أنه لم يتم لا لسبنسر ولا لداروين أن يكون أحدهما أول غائص وراء الدرة المستقرة فى أعماق بحر النشوء المتلاطم الامواج بصور النظريات المتكاثرة ، وبقى استكشاف التصور العالى من حظ العلامة الكبير وولتر بيجهوت محرر مجلة الاكونومست اللندنية ، اذ كشف عنها فى كتابه المعروف باسم « الطبيعيات والسياسة : أو فكرات فى تطبيق مبادىء الانتخاب الطبيعى والوراثة على الجمعيات السياسية » وكان الكتاب عبارة عن مقالات نشرت تباعاً فى مجلة « الفورتنيتلى » بداءة من شهر نوفمبر سنة ١٨٦٧ . ولما جمعت هذه المقالات فى صورة كتاب خرجت فى قطع من الحروف الكبيرة فلم تزد صفحاته على ٢٢٣ صفحة . غير أنك لن تقع فى الابحاث التى دارت حول هذا الموضوع على بحث أكثر ابتكاراً أو قوة فكر أو سلاسة تعبير أو امتناعاً فى ادراك السببية الاجتماعية

أى علاقة الاسباب بالمسببات فى الاجتماع - مما تقع عليه فى هذه الصفحات القليلة منذ أن نشرت حتى اليوم .

فى كتاب « التعادل الاجتماعى » أظهر سبنسر أن الانسان البدائى لما اضطر الى الاحتفاظ بحياته بان يستقوى على الانواع الاحط منه مرتبة فى عالم الاحياء : نزع الى القتل والقسوة ، بأنهما غير عابىء ولا مفكر فى شىء . غير أن أعقابه : بعد أن تم لها الانتصار على غيرها من الانواع الدنيا ، وورثت عن أوائلها عالماً خاضعاً لارادتها ولم تجد من حاجه تدعوها الى القتل والتقطيع ، من الجائز أن تكون قد عمدت الى التعاون المنتج فى ميدان العمل السلمى ، بعد أن فرخت فى أعماق نفوسها أصول العطف النوعى . وعند هذا الحد وقف العلامة سبنسر فلم يستطع أن يدرك أو يصور بالاستقراء حقيقة العلاقة الواقعة بين هذا النظام وتكوين الجماعات ، أو بينه ، بين الجهد التضامنى الذى يبذله مجموع متعاون بعد أن يكون فى وحدة اجتماعية .

ولقد كانت حقيقة التناحر التضامنى - Collective Conflict لدى قياسه بالتناحر الفردى على البقاء ، هى الحقيقة التى وقع العلامة « بيجهوت » ان يمتحنها ويدرسها فلم يلبث أن نفذ ببصيرته الى نواة الموضوع - قال :

(إن ارتقاء الفرد يتطلب تعاون المجموع لينمو ويثمر . أما المبدأ الاول فى هذا النظام فهو أن الانسان لايستطيع أن يرتقى الا فى مجموع متعاون ، وقد يصح أن أقول قبائلا وأمما ؛ غير أنى استعمل اللفظة الاقل شيوعا ، لان الناس قد يرون أول وهلة أن القبائل والامم هى فى الواقع مجموع متعاون ، وأن تعاونهم هذا هو السبب فيما لهم من قيمة وجدارة فى الحياة ، وانه مالم تحدث فى جمعية من الجمعيات رابطة تعاونية قوية ، فان هذه الجمعية لاتلبث أن تغزوها وتفنيها جمعية أخرى اكتسبت رابطة التعاون . أما المبدأ الثانى فان أفراد مثل هذا المجموع يجب أن يكون بينهم قدر من المماثلة بعضهم لبعض يكفى لان يحفزهم الى التعاون الايجابى السريع . على ان التعاون فى كل الحالات المشابهة لهذه انما يرجع الى « شعور بالوحدة » قلبا وروحا . وهذا الشعور بالوحدة لايمكن استيعابه ، الا بعد أن تحدث درجة من المماثلة الصحيحة فى العقلية والمشاعر بصرف النظر عن الاسباب التى تحدث هذه المماثلة ،

ولقد أراد مستر « بيجهوت » بعد ذلك أن يعلل كيف تستحدث المماثلة فى العقل

والشعور فى الجماعات فاجاب على ذلك بانها انما تستحدث من طريق استعباد لم تر له مثيلا فى كل تجاربها الاجتماعيـــة . الا وهو استعباد « قانون العادة » — Customery Law — ومن أجل أن يعلل حدوث العادات الاجتماعية ومقدار قوتها وأثرها فى الاجتماع ، وضع نظرية ضمنها خصائص المحاكاة أو التقليد . فان العادة من شأنها أن تحدث مماثلة ما بين الوحدات الاجتماعية ، وتفرض عليها حياة غير متغايرة ولا متحولة ، بحيث تصبح هذه الحالة عقبة كبيرة فى سبيل الارتقاء والتغاير من حال الى حال . لهذا يقول « بيجهوت » ان ادخال عناصر التغاير وخلق نزعة الى الارتقاء فى جماعة تحكمت فيها التقاليد ، أحد الاشياء التى تفيد الجماعات فى مناحراتها العديدة وعلى هذا يسير التطور الاجتماعى فى ظل معارك تقوم بين النزعات المتنافرة ، قسم منها فى جانب الاستمرار والبقاء على التقاليد ، والقسم الآخر فى جانب التغاير وتحقيق الاستقلال الفردى ، وقد تسود فى فريق من الجماعات احدى هاتين النزعتين . فاذا تساوتا من حيث القوة فى جماعة من الجماعات التى تتناحر وجماعات أخرى ، فان الابقى فى التناحر على البقاء هى الجماعات التى [illegible]ن فيها النزعتان وتتساويان بحيث يصبح اثرانهما سبيلا تربح به الجماعة صفات الغلبة التضامنية . ولا جرم أن مستر « بيجهوت » قد وضع بشواهده هذه نظرية ثابتة من النظريات المعتمد عليها فى علم الاجتماع الحديث

ولقد عقب « دارون » على « بيجهوت » فى كتابه « أصل الانسان » . ففى الفصول التى بحث فيها العادات الاجتماعية والكفايات الادبية فى الجماعات ، انتحل النتائج التى وصل اليها بيجهوت ، ثم زاد اليها أشياء تعتبر أساسية فى هذا البحث ، فقال بان أربعة حالات اجتماعية يمكن للجماعات من سبيلها أن تفوز بالتفوق الاجتماعى خلال الصراع الذى يقوم بين الطوائف الانسانية . وهذه الحالات الاربع هى :

أولا — الاتحاد الجمعى أو القبيلى كسبب للتفوق فى التناحر بين الجماعات

ثانياً — العطف المتبادل كمؤثر فى إيجاد الاتحاد الجمعى .

ثالثاً — أهمية الوفاء المتبادل والشجاعة الغيرية .

رابعاً — الدور الاكبر الذى تلعبه ظاهرة الميل إلى المديح والزهد فى الذم فى خلق صفات الشجاعة الغيرية والوفاء المتبادل .

وفى هذه الاشياء الاربعة وجد داروين جواباً لسؤاله : كيف ، مع قيام الحالات التى يجب أن تقترن بالتناحر على البقاء ، يمكن للصفات الاجتماعية والادبية أن تجد فسحة تنفذ منها تدرجاً إلى حيث ترتقى وتتطور وأن تنتشر بين الناس فى أنحاء الدنيا المعمورة .

لقد أظهر الكونت « كروبوتكين » الروسى بكتابه « التعاون المتبادل بين الحيوان كعُوَّر نشوئى » أن كلا من « سنتر » و « يجهوت » و « العلامة « داروين » قد ترك فى ميدان البحث فى المشاعر الاجتماعية والتعاون المتبادل ثغرات سدها هو بكتابه هذا . وكان قد نشره فى مقالات ظهرت على صفحات مجلة القرن التاسع عشر . ولقد طبق كروبوتكين بعد ذلك نظريته فى التعاون المتبادل بين الحيوانات ، على جماعات البرابرة والمتوحشين فى أنحاء العالم . على أن هذه المقالات لم تبشر للناس بنظرية جديدة ولا هى واتتهم بعلم جديد فى سبيل مستحدث من سبل النشوء ، ولكن كاتبها قد استجمع خلالها كثيراً من الشواهد والبراهين المؤيدة لحقيقة أن الدور الذى لعبته صفات العطف والتعاون فى التناحر على البقاء كان عظيما هائلا ، كما أظهرت الى أى حد من الخطأ يذهب الذين يضربون الانتخاب الطبيعى بأنه عبارة عن تغلب الأقوى والأقسى والأحيل .

ooo

إذا اعتبرنا هذه الحقائق وتأملنا منها ملياً ، وعرفنا أن تفوق الجماعات راجع الى مماثلة ، تكون بين العقليات والمشاعر فى الافراد التى تكون هذه الجماعة ، ثم تبصرنا فيما انتجت المدنية الصناعية من نزعات فى مختلف نواحى الحياة الضخامية ، فاننا لانلبث أن نحكم بان المدنية سائرة اليوم نحو تقييد قانون بقاء الاصلح باوضاع تودى حتما الى بقاء الاطلح من فلول الجماعات العظمى ، كما يسميها « جراهام والاس » فى كتابه — The Great Society

ولاجرم أن تقسيم طوائف الجماعة الى فئات تتخذ كل منها صفة من الصفات التى تودى الى السقوط فى معركة التناحر على البقاء الاجتماعى والانهزام فى معمعة الاستقلال الذاتى سيما الى تفوقها ، ضرورى فى مثل هذا البحث . بهذا نقسم الطوائف التى تحاول البقاء من طريق مضاد لما تتطلب حياة الجماعة لتكون جماعة غالبة فى الحياة الى ثلاثة أقسام :

الاول — الذين يتطلعون الى النشوء من ناحية القوة

الثانى — الذين يحاولون التغلب من ناحية القسوة

الثالث — الذين يطلبون الحياة الوادعة من ناحية الحيلة

وانت ان تطلعت فى نواحى المجتمع الحاف بك اليوم لاترى إلا أحد هؤلاء يرميك إما بقوة يخضعك بها ، واما بقسوة يسلبك بها ، وأما بحيلة ينتزع بها منك اسلحتك الاجتماعية .

ولقد كانت جماعات المدنية الحديثة أشد شعورا بحاجتها الى صفات التعاون الاجتماعى خلال سنى الحرب منها فى هذا العصر الذى علت فيه صيحة السلام وقامت عصبة الامم شبحا تتطلع اليه الامم ليدفع عنها غائلة الحروب . وكلما ازداد الناس اطمئنانا للسلام ازدادوا لزوما لعادات سوف تزيد فى انفسهم حب الغلبة فى احدى هذه الطرق الثلاث ، فاذا تذكرنا أن هذه الطرق الثلاث هى الدعامات الاولية فى التطفل الاجتماعى استطعنا أن نحكم بان مدنية العصر الحاضر تختص بصفة جلية بينة هى صفة القضاء على الاصلح فى سبيل الاحتفاظ بالاطفل من افراد المجتمع .

اسماعيل مظهر

ياحياة

أم أنت ياحياة مباد أو مداج ينسل فى الآمال

وبياض النهار فيك على الرغـم من الشمس فى سواد الليالى

أنت شوهاء غير أن الامانى طالما غررت بمرأى جمال

فاذا أنت فتنة النفس تصبـين اليك على هدى وضلال

والأمانى لوعة النفس حالت قبسا فى ظلام ليل الخيال

فتخال النفوس حتى اذا أو قظ منها أعيت على الاغلال

والمقادير تلعب اللعب الأخـرق بين أسراك بالاهوال

والتداعى بالصبر ملتجأ اليأ س أتينا أم لم نثب بامتثال

عبد اللطيف ثابت

تأملات في الأدب والحياة

يظهر أن فى الجماهير ميلا شديداً وحنوا على الذين يحتقرونها بأعمالهم دون أقوالهم ويظهر أيضا ان الجماهير من عباد القوة دون غيرها . ظاهرة يمكن الاستدلال عليها فى كثير من ظروف الحالات التى تقع تحت اعيننا فى كل يوم ، بل وفى كل آونة .

مستبد يقوم فى أمة من الامم فيقتل حرياتها قتلا ويستولى على الزمام من أمورها عنوة وغصباً ، ويهدر كل يوم من ابنائها دماء ربما كانت أزكى من دمه ، و يعقل منهم عقولا ربما كانت أرجح من عقله ، ثم يغريها بكلمات جوفاء ، كالماضى المجيد الذى نعمل على أحيائه ، و « التراث العظيم الذى نعمل على بعث رفاته » و « ستحاربون منتصرين بعد خمس سنوات فتزلزلون الارض وتحيكم أرواح الاجداد » و « الامبراطورية العظيمة تنتظركم فوق الأرض وملكوت الله فى السماء » - فلاتلبث ان تنقاد متحمسة للذل ، متفانية فى العبودية ، مستميتة فى حب الخضوع والاستكانة .

وصحفى يحاول ان يستغل عقلية الجمهور فيقدم له على صفحة لا أ كثر من ورق لامع وصور متقنة ، من فاتنات يرقصن عاريات ، أو فتيان يغازلن فتيات فى عهر وغواية ، أو رواية وقائع ما إن تروى إلا بين أهل الدعارة وكلمات يفزع منها كل انسان عرف قيمة نفسه ، فيندفع الجمهور المحتقر فى نظر هذه الصحف ، الممتهن فى عقليته ومستوى آدابه ، المتهم فى مقدار حكمه على الاشياء وراء هذه الصحف يعضدها لا باعجابه ولا بمديحه ، بل بماله . صحف تعيش على استغلال احط الصفات البشرية ، وتقرض بالربا الفاحش غواية تلقاء ضلالة من الجماهير ، فهى صحف تتهم عقلية قرائها بالفساد ، وتنشر علناً وتحت حماية من القانون صوراً خلقية لم تفكر الحكومات بعد فى صيانة الجماهير من أدوائها المديدة . وانى لاعجب كيف أن حكومة كالحكومة المصرية هيأت قواها بمثل هذه الحلة المبررة ضد السموم البيضاء التى لاتصيب الا افراداً ولا تقتل إلا مناكيد المجتمع ممن قضى عليهم ضعف العزيمة وفقدوا الشجاعة ، تجيز نشر صحف تنفث سمومها لا فى الافراد بل فى الجموع ، وتعيث فساداً فى الارض

وتقيم سداً فى وجه المصلحين الذين يحاولون رفع المستوى الادبى والعلمى ، اين منه سد الاسكندر ، كلا بل سد يأجوج ومأجوج .

° ° °

فى الأدب الحديث جانب من النقص لم أعرف حتى الآن كيف يمكن اصلاحه ، فانى لم اتبين من منازع الادباء حتى اليوم أن هنالك بادرة ترمى الى القضاء على هذا النقص .

أعرف من الادب فى أول ما أعرف منه أنه طريقة فى الوضع تقابلها طريقة فى النقد . أما طريق الوضع فقد قطعنا فيه شوطاً لابأس فيه على وجه الاجمال ، وأما طريق النقد فذلك هو النقص الذى لانزال نحسه فى الادب الحديث . هذا فى عصر يقول فيه « كانت » :

« يمكن أن نصف هذا العصر بأنه عصر النقد . النقد الذى اضطر كل شىء الى الخضوع له . فالدين على عرش القداسة ، والقانون على عرش العظمة ، قد حاول كلاهما مرات أن يفلت من الخضوع لهذه الضرورة . غير انهما بما حاولا فى هذا الشأن قد أقاما فى الاذهان شكا فيا يعضدهما من الأسس والقواعد ، كما أنهما عدما بهذا ، كل ماحبا العقل غيرهما به من الاشياء التى أثبتت قدرتها على الثبات أمام النقد الحر . »

أخرجت منذ أسابيع كتيباً فى مقارنات تاريخية تقليدية سميته « قصة الطوفان وتطورها فى ثلاث مدنيات قديمة هى الاشورية البابلية والعبرانية والمسيحية وانتقالها باللقاح الى المدنية الاسلامية » وأرسلت منها هدايا للصحف والمجلات التى خيل الى أنها تقدر الاطلاع على مثل هذه الابحاث ، فكانت الباكورة أنى أطلعت فى إحدى مجلات العراق على نقد جاء فيه :

« اسماعيل مظهر مغرم بكل مايخالف معتقد الاقوام الذين يعيش فى وسطهم وقد يصيب فى بعض الأحيان فى ما ينكره عليهم (الحمد لله) لكن فى أغلب الاحايين يخطىء الهدف .

ثم قال الكاتب « وأول ما يشاهد فى مطبوعات دار العصور اغلاط الطبع فانها تسبق جميع المطابع فى هذا الميدان » . ثم قال « ونراه كثيراً ما يهمل بجانب الكلمة الاصطلاحية العربية الكلمة الافرنجية فى حين لا حاجة إلى ذكرها الشيوع معرفتها

عند الجميع مثل الدين والفلسفة والتأمل والعلم إلى نحوها ، ثم قال ، وكثيرا ما يخطئ الكاتب فى معرفة الألفاظ العربية الاصطلاحية فانه ذكر فى ص١٥ - أنثروبومورفزم أى الفكرة القائلة بتزويد الله شيئا من الخصائص الانسانية . والمعروف عند السلف (رضى الله عنهم) بهذا المعنى مذهب المشبهة أو التشبيه . وسمى الفلسفة الحسية بالفلسفة الاثباتية . وكيف جاز له أن يسميها اثباتية والحس أساسها والحس كثير الانخداع كما هو مقرر فى علم الطبيعيات ، الى غير ذلك - ثم ذكر أنى أخطأت فى تعريب أسماء أعرف أنه يجب فى تعريبها الامن درس اللغات القديمة وعلى الأخص الاشورية والكلدانية .

وأنى لا أريد أن أناقشه فيما ذهب اليه وعلى الاخص لدى اعتراضه على اصطلاحى ذاتى وموضوعى اللذين أراد ترجمتهما بالذهنى والعرضى على ما قال السلف ، مع أن المقصود منهما فى الفلسفة الحديثة بعيد عما ذهب اليه هنا السلف ، ولا أريد أن أنبهه الى أنى ترجمت اصطلاح أنثروبومورفزم ، بالناسوتية ، وأنى أول من ذهبت هذا المذهب فى ترجمته وأغفل مناقشتى فيها ، ولا أريد أن أقول له إن ترجمت فلسفة كونت Positive Philosophy بالحسية خطأ محض وداهية دهياء على الفلسفة وأهلها ، ولا أريد أن أقول له أنى جريت فى ترجمتها بالاثباتية على قول السلف ، إذ كانوا يقولون فلان جبرى وفلان اثباتى أو مثبتاً ، ولا أريد أن أنبهه الى أن الفلسفة الاثباتية لا تقوم على الحس وحده بل تعتمد بديا كما تعتمد كل العلوم على ، تصور ، صحيح يثبته الحس بالتجربة أو المشاهدة ، ولا أريد أن أوجه نظره إلى أنه اتهم أكثر من صحيفة ومطبعة بالأخطاء المطبعية فقال فى جريدة ،البلاد ، التى يصدرها فى بغداد الاديب الفذ ، روفائيل بطى ، أن اغلاط الطبع تتدفق فيها تدفق السيل العرم. لا أريد أن أنبهه الى شىء من هذا ، بل أريد أن أسائله — بعد أن أسلم جدلا بكل نقوده هذه — أين الموضوع يا أستاذ ؟ كل ما قلت صحيح ! ولكن ما رأيك فى مقدمة الكتاب وفى الموضوع نفسه . ذلك الموضوع الذى لم نرم فيه الى تعريب الالفاظ ولا ترجمة المصطلحات ، بل الى مرمى يعرف الكاتب أنه مهزوم ان ناقشه

هذا ما ينقصنا فى الادب الجديد . طريقة للنقد تتحرر من التقاليد ومن التغرض . وقد يسائلنا البعض أين التغرض التى ظهرت عليه فى مجلة لغة العرب

التى ساقت هذا النقد ؟ فنقول له ارجع الى الصفحة المقابلة لهذا النقد والتى نشر فى رأسها نقد جريدة البلاد ، الحرة ، الفكر لترى فى نهايتها ما يأتى :

الفردوس — مجلة دينية أدبية تاريخية شهرية وسنتها عشرة أشهر يصدرها القس منسى يوحنا راعى الكنيسة القبطية بملوى — ورد الجزء الاول بحجم الثمن الصغير وفيه ١٦ ص والمجلة مفيدة لمن يريد اصلاح الامة من وجهة الدين وهى الوجهة الحقيقية التى لا يستغنى عنها امرؤ يبغى الفلاح لنفسه ولغيره .

سائل محرر ، لغة العرب ، ألم يخطىء راعى الكنيسة القبطية بملوى ؟ ألم تعثر فى مجلته على غلطة مطبعية ؟ كلا بالضرورة . وألف كلا .

***

يروى عن أمية بن أبى الصلت أنه قال فى شأن وقعة الفيل يذكر الحنيفية دين ابراهيم

إن آيات ربنا باقيات ما يمارى فيهن الا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب كريم بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور (١)
لازما حلقه الجران كما قطر من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كندة ابطا ل ملاويث فى الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

وقال فى خراب سدوم وقصة لوط :

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا قد نهيناك ان تقيم قراها
عرض الشيخ عند ذاك بنات كظباء بأجرع ترعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا أيها الشيخ خطبة نأباها
أجمع القوم أمرهم وعجوز خيب الله سعيها ورجاها
ارسل الله عند ذاك عذاباً جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب ثم طين ذى حروف مسوم إذ رماها

---

(١) لعله يشير الى فيل ابرهة الاشرم

وقال يذكر قصة تضحية ابراهيم لابنه اسحق .

ولابراهيم الموفى بالنذر احتساباً وحامل الاجزال
بكره لم يكن ليصبر عنه أو يراه فى معشر أقتال
أبنى انى نذرتك لله شحيطاً فاصبر فدى لك حالى
واشدد الصفد لا احيد عن السكين حيد الأسير ذى الاغلال
وله مدية تخايل فى اللحم هذام حنيّة كالهلال
بينما يخلع السرايل عنه فكه ربه بكبش جلال
فخذن ذا فارسل ابنك انى للذى قد فعلتما غير قال
والد يتقى وآخر مولو د فطار منه بسمع فعال
ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

ولشعراء النصرانية كثير من مثل هذا الشعر الذى يصوغون فيه روايات دينية فى أحسن حلة . وغالب الظن ان هذا الموضوع لم يطرق فى نقد الشعر العربى من قبل ، فلو توفر عليه أديب ومضى فى مقارنات يستخلص منها صفة هؤلاء الشعراء وهم الذين مثلوا حركة الثقافة بنواحيها فى عصورهم ، لكان لنا مجال جديد فى البحث الأدبى له فوائده كما أن له جماله

ويروى على ذكر أمية ابن أبى الصلت أنه عند ما مرض مرضه الذى مات فيه جعل يقول : قد دنا أجلى وهذه المرضة منيتى . وأنا أعلم ان الحنيفية (دين ابراهيم) حق ولكن الشك يداخلنى فى محمد . ولما دنت وفاته أغمى عليه قليلا ثم افاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

لامال يفدينى . ولا عشيرة تنجينى . ثم اغمى عليه أيضاً بعد ساعة حتى ظن من حضره من أهله أنه قد قضى . ثم افاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

لا برىء فاعتذر . ولا قوى فانتصر . ثم أنه بقى يحدث من عنده ساعة ثم اغمى عليه مثل المرتين الأولين حتى يئسوا من حياته ، ثم أفاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

محفوف بالنعم

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأى عبد لك الا الما

ثم أقبل على القوم فقال : قد جاء وقتى فكونوا فى اهبتى ، وحدثهم قليلا حتى يئس القوم من مرضه وأنشأ يقول :

كل عيش وان تطاول دهراً منتهى أمره الى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا
فاجعل الموت نصب عينك واحذر غولة الدهر انه للدهر غؤولا



قصة

الخولى القديم

جعل الشيخ قبلان يطوف بارجاء حديقة آل هاشم مودعا المكان الذى نشأ فيه ورعاه منذ طفولته . وهو من عائلة تولى اسلافها هذا المنصب بالتوالى فماخرج منهم منذ أجيال ، فلما مات أبوه الذى كان يعرف كل شبر فى الضيعة تولى الشيخ قبلان وظيفته . وقدكان ذلك منذ اربعين عاما ،والآن قد عادت به الذكريات الى أيام طفولته حين كان ابوه يأخذه بيده وهو حامل السلة بالأخرى فما يرى عودا غريبا من النبات الا وقف أمامه متأملا فاما عرف اصله أوسأل اباه عن حقيقته

كان اليوم يستبدتلك الذكريات وما تلاها فلما تزاحمت الأفكار فى رأسه تصدعت بالألم . وبالرغم من انه كان يعلم — حين قرر الخروج من الضيعة — أنه سوف يألم لمغادرتها فأنه ما كان يحسب ان يصل به الألم الى هذا الحد الذى جعل يعانيه وهو يطوف بارجائها . لقد كان كأنه نبت من تلك الأرض أو شجيرة من أشجارها وروح من أرواحها ومع ذلك فها هو ذا يغادرها الآن بمحض رغبته ومشيئته وهو الذى لم ير من مفاجآت العالم ومغامراته إلا حبة من نبات نادر يودعها بطن الارض فتفاجئه بعود لم ير له من قبل مثيلا . . أو عاصفة تهب فجأة فتتطاير بعض الاغصان أو الازهار التى كان يترقب بشوق نموها واكتمالها . . اوأمطارا كثيفة تهطل فترخى الارض وتغيدبما فوقها من زرع يافع . هذا وذاك وما ماثلهما من مفاجآت هو النوع الوحيد الذى كان يثير اليأس والأمل والخيبة والتصرف نفس الشيخ قبلان حتى يوم صدور قراره بأن يغادر عزبة آل هاشم ثم يوم وقوفه وتجواله ليتزود مما احب بالنظرة الاخيرة .

ومامن شك ان حزنه وألمه كانا يتفاوتان عند ما كان يقف مودعا هذه النخيلة او تلك المجموعة من الأزهار والرياحين بقدرما فى نفسه لكل منها من منزلة واعتبار وذكرى قديمة او حديثة . . بل لقد كان يستطيع ان يحس خلال ألمه الممض بشىء من السرور والأعجاب إذ كان يرى زرعة تكاد تبسم له كأنها تنطق له بالشكران لتعهده اياها حتى بلغت ما هى فيه من جمال وفتوة .

واكثر ما كان يفكر فيه اثناء ما تساوره تلك الغبطة أنه إذا رجع بعد عام أو عامين سيرى تلك الزرعة أجمل وأنق مما هي الآن ، لاسيما وهو الذى تعهد الخولى الذى سيخلفه وانشأه على غراره

وكان يقف الحين بعد الحين ليلقى تعليماته على هذا البستانى او ذاك وقد أمضى اكثرهم سنين كثيرة يشتغلون تحت إمرته . والعادة صنو الغريزة . لذلك كان (والوقت بعد الظهر) يوزع العمل بينهم لصباح اليوم التالى الذى كان سيغادر الضيعة فى باكورته ، لكن العمال كانوا يصغون له بملء الاحترام بالرغم من أنهم كانوا قد تلقوا تعليماتهم من خلفه . .

وأدى به المطاف الى خميلة كان ذلك الخولى القديم قد أفنى فى تنسيقها وتنميقها فنه ومهارته وتوجها بواو (و) من السندس الأخضر المزركش بالأزهار البنفسجية والحمراء والبيضاء فى انتظام وانسجام فائقين ، فوقف يتأمل الخميلة بعين الشيخ الذى تتلاحق الذكريات فى مخيلته فتثير فى نفسه الأسف والاسى على عهود مزدهرة حجبتها السنون بدورانها . استذكر اليوم الذى غرسها فيه والاعوام التى قضاها يتعهد نموها ويشذب من اطراف الواو التى هى الحرف الاول من اسم (وفيق بك) صاحب العزبة السابق الذى كان الشيخ قبلان يكبره بسبع سنوات وقد غرس أول بزرة فى فى تلك الخميلة يوم ولادته تحت اشراف ابيه وارشاده . . وقد أخذ الشيخ قبلان يفكر الآن فى عجب لماذا لم يفعل لدى ولادة البك الصغير مثلما فعل لدى ولادة ابيه مع انه كان وقت هذه طفلا غريرا ومساعد بستانى ، وساعة تلك كبير الخوليين ! ! أكان يحس حقيقة بما سوف يحدث ؟ ؟

واطال الشيخ قبلان الوقوف بين يدى الخميلة الحافلة بالذكريات وهو غارق فى لجة عميقة من التفكير والاسى حتى انه لم يشعر بقدوم رفعت بك مالك الضيعة الجديد ووقوفه بالقرب منه متأملا ! !

وكان رفعت بك ملماً بطرف من قصة هذه الخميلة ، عارفا بما يشير اليه حرف الواو البديع الذى يتوجها . فلم يكن من الصعب عليه ان يدرك انصراف ذهن الخولى القديم فى وقفته امامها نحو ما تثيره من ذكريات . لذلك وقف رفعت بك على قيد بضعة امتار منه يتأمله بعين الاعجاب والحيرة بينما كان قبلان واقفا لايبدى حركة كأنه تمثال منحوت . . . وشيئا فشيئا تحول شعور رفعت بك الى خشوع ورهبة

حتى لقد خيل له أنه ليس بذى حق فى وضع يده على الضيعة التي اشتراها ، وان صاحب هذا الحق و الاولى به منه هو ذاك الشيخ الواقف أمامه . وأوشك ان يعود أدراجه تاركا الشيخ يناجى ذكرياته ، ولكن حانت من الشيخ قبلان التفاتة صدته عن عزمه فتقدم من الحقول مشيا قائلا فى صوت متهدج : « اراك تتزود من غرسك بالنظرة الاخيرة ؟ » .

أجاب قبلان ــ نعم يامولاى ، و أنه لفراق مؤلم !

قال رفعت بك ــ ولماذا لاتعدل عن قرارك ياعم قبلان وانت تعلم انى اود بقاءك ؟ لست اريد منك أن تقوم بأى عمل لانك حقيق بان ترتاح فى هذه السن . على أنك سوف تبقى رئيس البستانيين تصدر اليهم ما يعن لك من تعليمات فلا تتغير مكانتك عن سالف عهدك الا حين تجد نفسك فى حاجة الى الراحة . فهل انت موافق على البقاء معنا ؟

ــ اشكرك ياسيدى و لكنى لا ارى مناصا من ان اذهب ، وارجو ان لايؤول ذلك بأى معنى من معانى نكران الجميل فانى . . . يجب أن أذهب . .

وسكت الشيخ قبلان و سكت رفعت بك هنيهة وان كان قد بان على هذا الاخير كأنه يجن شيئا فى نفسه ، ولكنه لايدرى لذا كان يجدر به ان يصرح به أو يكتمه .. وأخيراً فضل الأول فقال :

ــ أسمع ياشيخ قبلان . . اريد ان اسألك عن أمر وأريدك ان تجيبنى عليه اجابة رجل لرجل . . مما لاشك فيه ان خروجك من العزبة ليس بالأمر الهين عليك فضلا عما يترتب عليه من تغيير فى نظام حياتك . . فهل انت مغادرنا لانك تريد هذا التغيير ؟ ام لديك سبب آخر لعله انك لاتطيق ان ترانى مالكا للعزبة بعد آل هاشم ؟

فرفع الشيخ قبلان رأسه فى إباء وشمم قائلا :

ــ كلا ياسيدى . . لاهذا ولاذاك ، واشهد الله أنى ماشككت فى نبلك قط منذ رأيتك لاول مرة

فتنهد رفعت بك تنهيدة أزاح بها عن صدره ما كان جاثماً عليه من عبء ثقيل .

ولكنه عاد الى تفكيره فيما عسى أن يكون السبب الذى حمل الخولى على الاصرار على مغادرة العزبة التى نشأ فيها وأفنى فى تربتها جهوده !

ورفعت بك كان من الرجال العصاميين ،أنشأ نفسه وحالفه النجاح فى جميع أعماله وخطواته ، وما كان يجهل هذه الحقيقة أو يخفيها على أحد، بل لقد كان يفخر بها فى غير ما عجب ولا زهو ولا غلو فى تقدير نفسه . ولم يكن شراؤه ضيعة آل هاشم وقصرهم المنيف بحديقته الغناء وليد رغبة منه للمباهاة والمفاخرة ، وانما هو قد أقبل على شراء تلك الصفقة لما وجده فيها من مزايا قل أن تجتمع فى غيرها

على أن موقفه فى تلك اللحظة أمام الشيخ قبلان كان موقفا عجيبا حقا ! فهو قد كان محوطا بالكثيرين ممن يعيشون من فتات موائد الاغنياء وهؤلاء لادأب لهم إلا كيل المديح والاطراء بالاردب والقنطار لمن يتوسمون فيه السمن والبدنة ، حتي يغدق عليهم من فائض دهنه مايشبع جوعهم ويؤمن خوفهم . كما كان له الى جانب هؤلاء طائفة من الاصدقاء الصادقين لا يمنعهم احجامهم به من أن يبدوا له الرأى الصحيح أوما يعتقدون أنه الصحيح ولو خالف رأيه . ولكن رفعت بك فى تلك اللحظة كان مسودا بسلطان أقوى من سلطان المداحين والاصدقاء على السواء . كان يعتقد أن الحكم الذى يصدره عليه الشيخ قبلان هو الحكم الصحيح الصادق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . لقد كان ذلك الشيخ حكيما وإن لم يكن عالما أو متعلما

وقد استمر قائلا : « كذلك نجلك ياسيدى لايفتأ يتفقد المكان معتنيا عناية ماعليها من مزيد بتفهم كل مايقع عليه نظره فاذا لم يدركه بنفسه لم يأنف أن يستفهم عنه من هذا البستانى أوذاك فى رقة ودعة فائقين ، بعكس البك الصغير — يعنى ابن المرحوم وفيق بك هاشم — الذى لم يكن يهمه قط أن يلم بشىء عن الزرع والضرع مع أنه قد ولد ونشأ هنا وكان هو الاجدر بالعناية بشؤونه من كل من عداه كما كان المرحوم والده »

وتنهد الخولى تنهيدة صامتة وتقلصت أسارير وجهه وزاغ بصره كمن يحدق فى تضاعيف الماضى البعيد الغور و بعد هنيهة قال رفعت بك :

— يظهر أن هاشم بك الصغير لم يكن يمكث هنا طويلا لانه أخبرنى أنه يفضل الاقامة فى القاهرة ؟

— هذا صحيح ياسيدى فهوحليف أندية الميسر والرقص وغيرها من الملاهى

فلم يكن يجد من الوقت فسحة ليحضر الى هنا اللهم إلا أن يكون برفقته طائفة من لداته أو صويحباته؛ فاذا حضروا قضوا الوقت القصير الذى يقيمونه هنا فى معاقرة بنت الحان ولعب القمار وما الى ذلك من لهو دنىء سافل . وكان أبوه رحمة الله عليه لا يخفى امتعاضه من مسلك ابنه ولكنه كان يكظم غيظه لاسيما بعد أن يئس من عدول ابنه عن خطته العوجاء وسيره الضال . وكذلك كانت والدته التى قبضها الله الى رحمته منذ خمس سنوات ، وبعد وفاتها كنت إذ أسير الى جانب المرحوم أبيه اسمعه يقول ـ كمن يتحدث الى نفسه « من يدرى ماذا يكون مصير العزبة من بعدى ؟ » .

ـــ وإذن فقد كان وفيق بك يائسا من اقامة ابنه فى هذا القصر من بعده ؟

ـــ هذا صحيح . ولكنه فى الحقيقة لم ييأس منه إلا بعد أن حافظ البك الصغير على عاداته بعد بلوغه سن الثلاثين . أما قبل ذلك فقد كان رحمه الله يحسب أن ابنه لن يلبث أن تطفأ فيه حرارة الشباب ونزواته حتى يسأم عيشة اللهو ورفاق السمر المضر فيقفل راجعا الى العزبة وهو أكثر معرفة بالناس عالم قضى أيام شبابه فى الريف . . ولكن البك الصغير عندما بلغ الثلاثين ثم جاوزها ولم يزدد إلا انغماسا فى شهواته وملذاته ضاع أمل أبيه فى اصلاحه ، وبدأ يفكر كما ذكرت لك فى مصير العزبة من بعده . ولكن الحق ياسيدى رفعت بك أن البك الصغير شاب ظريف . لا يفارقه الابتسام بل الضحك والقهقهة . أو هو كما يقول المثل : لا يبالى اخربت أم عمرت ، ومع أنه كان إذ أراه صدفة يظل يتحدث الى حتى يصاب رأسى بالصداع فان كلامه كله كان خليطا عجيباً لا تخرج منه بنتيجة ، وكان ينظر إلى كأننى من « البله القدماء » ومن كان هذا شأنه لا يلتفت الى رأيه ولا يعبأ بمشورته ، لذلك كان يقابل كلامى بالضحك والسخرية عندما كنت أحاول أن أبين له عظمة هذه الضيعة والقصر اللذين سوف يؤولان له . (واستند الشيخ قبلان الى الشجرة القائمة عند مدخل الخيلة ثم استتلى قائلا) ولكنى أؤكد لك ياسيدى أن البك الصغير بالرغم من هذا كله رجل نبيل شريف العواطف دقيق الحس كريم الاخلاق ، لم يخرج قط على تلك الخلال الجميلة والخصال الحميدة منذ نعومة أظفاره . .

قال رفعت بك ـــ وإذن فانت تغادر العزبة لانك تمتعض من تصرف البك الصغير ولا تريد أن تبقى فيها بعد خروجها من يد آل هاشم ؟

أجابه الشيخ قبلان — هذا صواب من بعض الوجوه ، ولا أخفي عليك ياسيدى أنى صدمت صدمة شديدة اذ لم يكد البك الكبير ينتقل الى الرفيق الاعلى حتى باع البك الصغير العزبة عن بكرة أبيها دون روية أو تفكير !! . وحينئذ شعرت أن خاتمتى قد حلت لاسيما أنه ليس هنا أحد من أولادى ليشجعنى على البقاء . . على أن عدم وجود أولادى هنا ليس معناه أنهم هجروا فلاحة الارض ، كلا ، فأن اثنين منهم يشغل كل منهما وظيفة خولى فى عزبتين كبيرتين احداهما فى البحيرة والاخرى فى الدقهلية ، أما ولدى الثالث فمع أنه يشتغل كاتبا فى إحدى الدوائر بالقاهرة فانه يقيم فى منزل بالجيزة وقد استأجر قطعة أرض بجوار منزله فأنشأ بها حديقة غناء يقوم على فلاحتها بنفسه ، وهو الذى سأذهب لاقيم معه واقضى مابقى من أيامى فى العناية بحديقته

قال رفعت بك — ولكنها سوف تتراءى لك صغيرة بالنسبة الى هذه الضيعة !

أجاب الخولى — هذا صحيح ، ولكن الشباب لايعود ، وقد لا استطيع فى الايام المقبلة أن أفيها حقها من الخدمة . . غير أنى سأكون سعيداً بجانب ولدى البار الصالح . وهو متزوج من سيدة فاضلة وله منها ولد وبنت انشأهما انشاءاً على أحسن منوال ، فمن يدرى ؟ ربما أمكننى أن أقوم بتربية أحدهما أو كليهما على حب الارض وفلاحتها فلا ينقطع بروز البستانيين من عائلتنا

ـ يسرنى ياشيخ قبلان أن أعرف انك سوف تجد الراحة والسعادة فى اقامتك مع ابنك كما اتمنى لك تحقيق رجائك فى تنشئة أحفادك على غرارك . . وإنما أحب أن أصرح لك أنه يجب عليك أن تعتبر هذا المكان مكانك فتحضر اليه فى أى وقت تشاء ورجائى أن تكثر من زيارتنا فى كل فرصة

وسكت رفعت بك ينتظر الجواب وكان يخشى أن يكون رفضا فتحطم آماله إذ يكون ذلك الرفض بمثابة حكم من الشيخ قبلان ضده بأنه مغتصب للضيعة ان لم يكن من وارثها ، البك الصغير ، فن الشيخ قبلان الخولى الذى أفنى آباؤه وأجداده جهودهم من قبله حتى بلغت الضيعة مرتبتها الحالية من غناء الارض وخصب تربتها . . وبعد صمت خيل لرفعت بك أنه قطعة من الدهر بدأ الشيخ قبلان يتكلم قائلا :

ـــ أشكرك ياسيدى رفعت بك على طيب عنصرك وكرم أخلاقك وأؤكد لك أنه يسرنى حقيقة أن تتاح لى زيارة هذه العزبة كلما سنحت لى فرصة لزيارتها ،وأؤمل أن أعود قريباً لزيارتها كما أرجو . . .

ثم رفع بصره الى النخلة كأنما يريد أن يناجيها برجائه الأخير . ثم خفض بصره وعاد يقول :

ـــ أرجو .. أن لا اكون قد ازعجتك بحديثى وشجونى !!

وكان رفعت بك قد لاحظ الحركة التى أتاها الخولى القديم بالنظر الى النخلة كأنه يناجيها . وادرك بفطنته ان ما كان يجول فى صدره آنئذ من رجاء هو أن تبقى تلك النخلة على حالها محافظة على ذكرى من زرعت يوم مولده وهو المرحوم وفيق بك الذى كان آخر فرد فى آل هاشم حفظ تراث أجداده وادخل عليه من التحسينات والاصلاحات ماهو جدير بمتابعة سنة التطور والارتقاء ، على ان الشيخ قبلان ان لم يكن قد صرح برجائه الذى جاش به صدره فما ذاك إلا لدقة فى الاحساس وسمو فى العواطف منعاه من ان يبدى تلك الملاحظة التى قد يكون فيها جرح لاحساس رفعت بك إذ يجده لايفتأ يشير الى أصحاب العزبة الاقدمين ، ولكن رفعت بك أدرك كل ذلك فمد يده للشيخ قبلان مودعا قائلا :

ـــ ثق ياشيخ قبلان انى أكون سعيدا بزيارتك فى كل وقت وآن ، ولن تجد إن شاء الله أى تغيير أو تبديل فيما زرعت يداك لاسيما هذه النخلة الجميلة . وانى تاركك الآن لاتمام جولتك ، وأرجو لك السعادة والهناء .

وعاد رفعت بك الى القصر ، ووقف الشيخ قبلان قبالة شجرة « الواو » يتأملها والشمس تنحدر عنها إلى المغيب . .

مصر
في الحقيقة والخيال

EGYPT : in fact and fiction.

وجه أحد أصدقائي الادباء نظرى إلى مقال مشاف نشرته جريدة الاجبشيان غازيت الانجليزية فى عددها الصادر فى ٢٨ ديسمبر الماضى ، رداً على مقال ذكر الكاتب أنه نشره فى عدد ماض من أعداد هذه الجريدة ، تناول فيه كاتبه الحركة الادبية و العلمية فى مصر .

ولقد ظهر لى أول وهلة أن المقال من قلم رئيس تحرير هذه الجريدة او من قلم أحد محرريها ، فقد اعتدنا أن لا تفسح الاجبشيان غازيت صدرها لمقالات من غير قلم تحريرها مصبوبة فى قالب معين ومطبوعة بطابع خاص بها .

ولست أدرى كيف سكتت جرائدنا السيارة عن دفع المفتريات التى تضمنها ذلك المقال ، وكيف صمت كتاب هذا البلد وأدباؤه ازاء تلك القذائف النارية التى صبها عليهم الكاتب فى ثلاثة أنهر من جريدته ملأها بالدعاوى الفارغة و الخطابيات الغريبة التى ذكرتنا بما كان ينشر فى جرائدنا فى أول عهدها بالوجود ، أي فى عهد باد فى صحافتنا المصرية ، أحياه ذلك الكاتب بمقاله المشحون بكل مايمكن أن يوجه لشعب من مناقص ومفتريات .

انى ولا شك من أول المعجبين بالادب الانجليزى ، بل و بالثقافة الانجلوسكسونية على وجه الاجمال . و انى لأعترف بأن مستقبل العالم ملك للغة الانجليزية ، وانه خير لأمم الشرق أن تنتحل العقلية والخلق الانجلوسكسونيين ، من أن يتحلى شيئا عن الحضارة اللاتينية . ولكنى مع كل هذا أستطيع أن أنتقد هذه الثقافة و أن أفتش فيها عن مناقص سدثغراتها رجال من غير الانجليز . أستطيع أن أقول لولا « ماكس موللر » الالمانى المتجلنز لاصبحت الآداب الانجليزية خلوا من كثير مما هي متحلية به من فلسفة اللغة والابحاث اللغوية العميقة ، بل و من ترجمة « الرغفيدا » ، ومن الوقوف على شيء من أصول فلسفة الهند ومذاهبها . ثم أستطيع أن أقول أنه لولا « باقون » و « لامارك »

وجفردى سانيلير فى فرنسا وكاسبار فردريك وولف وفون بوخ وفون باير فى المانيا ، لم يكن داروين وهكسلى وولاس فى انجلترا . فى استطاعتى أن أقول ذلك وأكثر منه لو أنى أردت أن أفتش عن مناقص الادب الانجليزى وعن الدين الذى يحمله علماء انجلترا وادباؤها لغيرهم من علماء الامم الاخرى وأدبائها . ذلك لأن الكاتب قد نبا به السبيل عن تقييم الحالة الراهنة فى الشرق عامة ومصر خاصة تقييما جدياً بعقل غير مدخول بشىء من التحامل الذى نعتقد ان للسياسة اثرا فيه كبيرا ، أو بنظر غير مفسد بترهات فئة من الذين نعرف كيف يكيدون لهذا البلد ويلقنون الكاتب أمثال تلك الاقوال التى أثبتها فى صحيفته من غير ان يعرف حتى كيف يكيدها لمصر ، فاظهر بما لا يترك مجالا لريب انه غافل عن أن مصر ان تأخرت عن اللحاق بأرقى الامم الأوروبية من حيث التعليم فذلك راجع الى سياسة دنلوب وكرومر فى المدارس المصرية ، تلك السياسة التى أخرجت لنا بيروقراطية منحطة ، وسدت السبيل فى وجه الفهم أن ينمو وان يتسع مجاله

على أننا نرى أن من الواجب أن نلخص مقال ذلك الكاتب قبل أن نمضى فى مناقشته تحديدا لموضوع البحث :

اختار الكاتب فقرة واحدة من المقال الذى نشره وبنى عليها رده الطويل . جاء فى هذه الفقرة ما يلى :

« والنتيجة أن لمصر أن تفخر بان فيها محامين ومفكرين من الطراز الاول ، وثقاة من الاطباء ورجال العلم والمهندسين وغيرهم من المثقفين الذين يمكن محاذاتهم لغيرهم من رصفائهم الاوروبيين . وفضلا عن هذا فان هنالك تعطشا للاساليب الاوروبية ، حتى أن المؤلفات الاوروبية العظمى أو تراجمها العربية يدرسها ويستوعبها حتى أولئك الذين لم تسنح لهم الفرصة لدرس لغة من اللغات الاجنبية » — ولقد استطرد الكاتب بعد ذلك الى الصحافة فقال إن قوة النقد فى الجمهور المصرى قد اضطرت أصحاب الجرائد الى انتحال أرقى الاساليب الصحفية الخ الخ .

هذه هى الفقرة التى نقلها الكاتب من المقال الذى نشره وعليها بنى رده كما يظهر . لهذا نمضى فى تلخيص أقواله باطناب لنستطيع بذلك أن نحصر ذهن القارىء فى لب الموضوع . قال :

« بدأ الكاتب بقوله إن البراهين التي تضمنها المقال الذي نشره لاتثبت أمام المناقشة والبحث . وحتى على فرض أنها كلها صحيحة فان ماطمع في اثباته من طريقها شيء غير جدير بان يطمع فيه . فان أمة — رفعت في زمان لواء المدنية والنور للعالم كله — قد اعطت اليوم الى أمة لاصناعة لها إلا النقل عن غيرها من الامم ».

« واذا فرض وسلمنا بان في مصر محامين من الطراز الاول ، ولو أنه من المستحيل أن تطبق أية وسيلة يمكن بها معرفة اذا كان ، تقسيم الطراز الاول » يجب أن يكون معادلا لما في الامم الاخرى . فاين أولئك المفكرون الذين تفخر بهم مصر؟ لم يظهر في مصر خلال العقد الماضي من الزمان الا فيلسوفان دينيان هما طه حسين وعلى عبد الرازق . ومع كل هذا فقد أظهرت مصر تقديرها لهما بان اضطهدتهما وطاردتهما . وبعد هذين والمؤلفين الذين يظهرون الآن كتاب فجر السلام ، لم يظهر أى أثر للرغبة في تطبيق قواعد النقد الحديث أو استخدام نتائج البحث المدرسي . بل ان الامر قد اقتصر على العودة شيئا بعد شيء الى المادة القديمة ليلبسها الكاتبون ثوبا جديدا . وعندما نذكر رجالا من أمثال طاغور الذين ظهروا في غير مصر من بلدان الشرق وقد حازوا صيتا عالميا ، فكيف نذكر بجانبهم مصر التي لم يظهر فيها رجل واحد عرف خارج بلاده ، فضلا عن الاضطهاد الذي ينزل برجالها . ولاشك في أن مصر أنجبت جراحين ومهندسين لم يعملوا من شيء الا أن طبقوا العلوم التي درسوها في أوروبا . ولكن أين في مصر الاعمال الابتكارية التي زادت الى مجموع المعرفة الانسانية ؟ ».

«ومما نغتبط به أن في مصر ابحاثا مبتكرة يقوم بها أطباء مصريون ولكن هذا لم يكن له أثر الا منذ زمان قصير . إن السبب في هذا هو أن المصريين يعتقدون أن نيل الدرجات العلمية غاية في ذاته . على الضد مما في أوروبا التي بدأ رجالها يدركون أن حمل الشهادات العلية ليس باكثر من دليل على أن حاملها قد تدرب عقله على أن يستوعب شيئا خاصا في الحياة . وسواء استطاع أن يستوعبه

أم لم يستطع فتلك شيء راجع إلى نظرته في الحياة والعمل الذي يعمله فيما بعد الفراغ من طور التعليم »

« والحقيقة أن المصريين في مجموعهم يكرهون كل من يجد من بينهم . فان المصري الثالث (بعد طه حسين وعلى عبدالرازق) الذي يصح أن يقال أنه نال صيتا عالميا هو احمد حسنين بك . ولا مبالغة مطلقا ان قلنا أنه لم يتجرد عن التشريف والاحترام الا في بلاده . ومما يروى أن احد ضباط الحدود أراد أن يقلل من أهمية استكشافه لواحة ، اركنو ، فقال بأن رجال الحدود يزورون هذه الواحة كل شهر ! ولقد طبع ، حسنين بك كتابه - The Lost Oasis - في اللغة الانجليزية في انجلترا وأمريكا على السواء ولقي رواجاً . ثم طبع نسخة باللغة العربية فلم يبع منها شيء ، فاضطر إلى توزيعها مجاناً ، وحتى الآن لم أقابل مصرياً قرأ هذا الكتاب . »

« لا يباع في مصر كتاب مهما كانت قيمته بأكثر من عشرة قروش مصرية . وهذا أقل ثمن يدفع في كتاب ، ومع هذا السعر الوحيد لا يباع منه الا القليل . »

« أما الذين يستوعبون الكتب الاوروبية وترجماتها فلا وجود لهم إلا في مخيلة كاتب المقال ، لأن كل القراء في مصر انما يكتفون على الجرائد والمجلات الشعبية المهضومة المادة ، والتي يغلب فيها أن تكون مترجمة عن المادة الأوروبية . »

« لا يوجد في مصر أدب مصري ولا كتاب . ولا يوجد مؤلف واحد من المؤلفين يستطيع أن يعيش من قلمه كما لا يوجد صحفي يستطيع ذلك ، أما المثل الأكبر على ذلك فانه حتى الآن لم تظهر ترجمة جدية لحياة سعد زغلول باشا ؟ ولا أستطيع أن أعتقد أن شيئاً كهذا ممكن حدوثه في أية أمة من الامم المتمدينة الأخرى . »

« أما الجرائد المجلوة في آخر طراز أوروبي فهذه ملك للسوريين . وإنه حتى الآن لم يتسن لجريدة أدارها مصريون أن تنجح كعمل مستقل ثابت

المعالم لمدة طويلة من الزمان. أما تاريخ الجريدة والمؤيد والكشاف فأكبر دليل على صحة ما أقول . »

ثم عطف الكاتب على ناحية السياسة فقال : « إن غاندى فى الهند مثال الابتكار ، أما زغلول باشا فى مصر فمثال التطرف » . وختم مقاله بأنه يرجو أن لا تحمل أقداله على محمل العداء للمصريين . وأنه يريد فى النهاية أن يقول بأن مصر لا يجب أن تنتظر أن تفلح فى شىء إذا هى عكفت على النقل عن ثمار العقل الأوروبى ولم تنزع فى الوقت ذاته إلى تكوين ثقافة خاصة بها .

***

والحقيقة أن الكاتب قد أصاب فى كلمته الأخيرة ، فان مصر يجب أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ولكنه فى الوقت ذاته قد أخطأ كل الخطأ بأن تعجل فى الحكم على حركة تجديدية لم تتم إلا بالأمس ، ولم تولد إلا بعد الحرب العظمى . فان الذين أدركوا العهدين ، عهد مصر الأدبى قبل الحرب وعهدها بعد الحرب ، ليدركون من غير كد أن الفارق عظيم وأن الثقافة المصرية قد أخذت تتكون بالفعل ، حتى أصبحت مصر اليوم ، ولها الفخر الأعظم ، منارة الشرق ومركز التوزيع الفكرى فيه ، من أقصى الغرب إلى أقصى حدود فارس . لا ينازعها فى ذلك شعب من شعوب الشرق العربى بأجمعه .

أما اعتمادنا على الكتب والمنتجات الأوروبية فى طورنا الحاضر فمسألة طبيعية لا مطعن فيها . فان الرومان لم يكونوا آدابهم وثقافتهم إلا على الثقافة اليونانية ، وكذلك متقدمو آباء الكنيسة النصرانية ومتأخروهم من أصحاب المدارس وكذلك النساطرة واليعاقبة والسريان والعرب . وكذلك أهل أوروبا فى القرون الوسطى فانهم أقاموا ثقافتهم على ترجمة ما نقل العرب عن اليونان ، وبذلك وضعوا الأساس وأقاموا عليه بناء ثقافتهم .

هذه هى الخطوات الطبيعية التى يخطوها كل شعب اذا نزع إلى تكوين ثقافة خاصة به . أما كلام الكاتب فيشعر بأنه قد تخطى هذه الحقيقة ، وهو يريد اليوم أن يقيم المصريون ثقافة مصر على غير أساس . وهذا ولا شك مستحيل .

إن من الضروری لكی تقوم ثقافة مصرية أن يكون لها أساس من الحضارة الحديثة . وكل محاولة لتكوين ثقافة على غير هذا الأساس مقضى عليها بالفشل المحقق. فان انتحال أسلوب الفكر الأوروبى هو محور الدائرة فى الصراع القائم اليوم بين المدرسة الحديثة والمدرسة القديمة فى مصر . ولا جرم أن هذا الصراع يستغرق جهد الذين يخوضون هذه المعركة اليوم . ولا شك عندى فى أنه متى فاز المجددون بتثبيت دعائم هذا الاسلوب . فان الثقافة المصرية تتكون من طبيعتها ويلبس الأدب الطابع المصرى الصحيح من غير أن يحتاج الى الاستمداد من النواتج الاوروبية . ذلك لان ثقافة مصرية لن تقوم على غير اسلوب تتخذه ركيزة لمنتجاتها . وهذا ما غفل عنه الكاتب ومضى فى مقاله من غير أن يقدره ! أو يجعل له أقل وزن فى سلسلة براهينه التى أتى عليها .

وهنا يجب أن نعلن فى صراحة أن مدرسة الصحافة المصرية قد خرجت صحفيين من الطراز الأول . وأن من الصحافة ومن كد الصحفيين تكونت الحركة الوطنية الكبرى من غير أن يكون للعنصر السورى أقل يد فى ذلك . بل يجب علينا أن لا نغفل عن التنبيه على أن فى صحفيي هذا العصر من هم أنعم عيشاً من أدباء انجلترا فى القرن الثامن عشر . فعندنا من الصحفيين من هم أرغد عيشاً من صموئيل جونسون دكتاتور الأدب الانجليزى فى عصره ، وفيلدنج الكاتب القصصى المعروف ، واوليفرجولد سميث ، الذى باع روايته الخالدة قس واكفيلد بدراهم معدودة ، فى حين أنى شخصياً بعت كتابى ملقى السبيل فى موضوع على بحث باضعاف ما باع به جولد سميث روايته . ومما أذكر من الاشياء التى علقت بذهنى عندما كنت أقرأ ترجمة صموئيل جونسون التى وضعها بوزويل أن أحد مشهورى الأدباء الانجليز التقى به آخر من رصفائه ولعله جولد سميث نفسه ، بعد منتصف الليل وفى الشتاء وكان أحدهما منزويا فى عتبة منزل والآخر يتجول لعله يعثر على مأوى يأوى اليه ، فقال الواقف على العتبة لزميله لا تتعب نفسك تعال ونم فى حجرتى — أى عتبة المنزل ؟ ولقد ساقها بوزويل ليظهر مقدار ما تعرض له رجال الأدب فى عصر جونسون من اناة فى سبيل الادب . فهل كان فى انجلترا فى ذلك الوقت أديب يستطيع أن يعيش من قلمه ؟

ليس فى مصر أديب واحد بلغت به الفاقة ما بلغت بادباء الانجليز فى القرن الثامن عشر . وإنى اقرر هذه الحقيقة رافع الرأس . مهيباً بالكاتب أن يسألنى البرهان وأنا الزعيم بأن ازوده بألف برهان بدل برهان واحد .

ولقد نسى الكاتب ولا شك أن الادب الانجليزى لم يثمر للادباء الا فى القرن التاسع عشر . ولقد نسى مع هذا أن جامعتى أكسفورد وكمبردج قد ظلتا تزودان العالم الانجليزى بالمتعلمين وبالادباء أكثر من ستة قرون من قبل ذلك . فأين كان الادب الانجليزى وأين كان قراء الانجليزية الذين حموا أدباءهم من التسكع فى شوارع مدينة لندن ، نواة العالم الانجليزى، عراة حفاة جائعين ؟

ولا بد لى من كلمة أسوقها فيما يدعى الكاتب من أن مصر مدينة بصحافتها لاخواننا السوريين . فى حين أن الحقيقة ان إخواننا السوريين مدينون بصحافتهم لمصر والمصريين . والا فليظهرنا الكاتب الشرقى أنه لم تؤسس فى سوريا كلها صحيفة واحدة تضارع أحط الصحف المصرية على اطلاق القول ، وسوريا كلها سوريون ؟

وإنك لو قلبت الصحافة السورية فى مصر لوجدت ان طابعها مصرى قبل كل شىء . فكأن المصرية هى التى صبغت الصحافة السورية بطابعها الثابت . وأن عكس ذلك غير صحيح على الجملة

ان الاقلام المصرية هى التى تزود الصحافة السورية باروع ما فيها من الادب وأعمق ما فيها من صور الفكر . وهى التى تزود كثيراً من صحافة سوريا الراقية بمثل ذلك . انه المنطق المصرى والاساليب المصرية هي الطابع الثابت فى الادب العربى فى هذا العصر ، وهذه حقيقة يعترف بها كل أهل الاقطار العربية من الناطقين بالضاد . ولو أنى أعلم أن هنالك أى وجه لان ينازعنى شرقى من أهل العربية فى هذا ، لما أقدمت على تقريره فى صراحة وجلاء هما حقي فى مثل هذا الموقف .

أما الصحف التى استشهد بها الكاتب ومنها الجريدة والمؤيد والكشاف وسقوطها فى عالم العمل الصحفى، فراجع الى حقيقة أولية بسيطة هى انها صحف سياسية تعمل فى سبيل قضية وطنية ، وحياتها وموتها مرهونان على تطور التيارات الفكرية فى السياسة ، ولن تقوم صحافة مصرية ثابتة الدعائم بحق إلا بعد ان تقتحم المعركة

السياسية بوجه من الوجوه . وهذا شيء لم تتعرض له الصحافة السورية السياسية في مصر لا جملة ولا تفصيلا .

فاذا رجعنا بعد ذلك الى اكباب الناس على الصحف السورية ، فاننا اذا استثنينا « المقتطف » وهي بحق المدرسة التي لاينسى المصريون فضلها ولا فضل مؤسسها المغفور له الدكتور صروف ، وجدنا انها كلها صحف صفراء . صحافة من الطراز الامريكي المنحط الذي يستغل أحط مافي الجماعات من نزعات . وعندي أن هذا النوع من الصحافة يجب أن يصادر كما تصادر المهربات والمواد المخدرة والعقاقير البيضاء .

ولا يسبقن الى أذهان اخواننا السوريين اننا بذلك نغمطهم حقهم ، بل أننا نريد أن نعطيهم حقهم غير زائد ولا منقوص ، شأننا في كل مانتناول بالنقد في مختلف الموضوعات .

واظن أن في هذا القدر كفاية لذلك الناقد الذي ان كان قد تطرف في القول ، فقد استفدنا منه نصحه بان نعمل على تكوين ثقافة مصرية اعتقد أن المصريين يتكاتفون على تدعيم أسسها في الوقت الحاضر .

المحرر

الطريد

أو

الحرية المضطهدة

للشاعر المجيد صاحب التوقيع

شقى أجنته الدياجى السوادف … سليب رقاد أرقته المخاوف
ترامى به ليـــل كأن سواده … به الأرض غرقى والنجوم كواسف
ظلام تضج الريح فى جنباته … وتصطخب الأمواج وهى زواجف
أعاورته ثارات الطبيعة رجفة … سرت فى حنايا الكون فالكون واجف
الى أين تمضى أيها التائه الخطى … يسايرك برق أو يجاريك عاصف
رأيتك فى بحر الظلام كأنما … الى الشاطئ المجهول يدعوك هاتف
تخوض الدجى سهمان والنجم حائر … يسائل من ذاك الشقى المجازف !؟
طريداً يفر الوحش من وقع خطوه … وتنأى الضلال السود وهى صوادف
كأن آله الشر يقتحم الورى … أو ان الردى فى برده الرث زاحف
فواعجباً لم تحمل الأرض مثله … ولا طاف منه بالدجنة طائف
يخاف الثرى مسراه وهو يخافه … وبينهما يسرى الدجى وهو خائف
ترى !! أى سر فى الظلام عجيب ؟! … أليس له من نبأة القلب كاشف؟
اجبنى طريد الأرض انى يهزنى … اليك هوى من جانب الغيب شائف
فردد ذاك الطيف صوتاً محيياً … الى كلحن رددته المعازف
أجاب أجل إنى الطريد وانى … ليفرقك (١) السر الذى أنا عارف
أتسألك الأفـــلاك عنى أنا الذى … رمته الدياجى والرعود القواصف
أجل إن ذا ، يانجمى تنكرت … لعينك لكن القلوب تعارف

---

(١) يفرقك يفتقك

يؤلف قلبياً جهاد مخلد وأى قلوب فيه لا تتآلف
وما أنا إلا من بنى الأرض ناء بى مقيم عذابى والشقاء المحالف
وما كان هذا الفود والموج والدجى ليرهب نفساً حقرت ما تصادف
سواء لديها الفجر أضوأ أم سجت غياهب فى سر الدجى تتكاثف
هى الأرض مهد الشر من قبل خلقنا ومن قبل أن دبت عليها الزواحف(١)
غذتها الضحايا بالجسوم فأخصبت وأترعها سيل من الدم جارف
وهيهات تشفى غلة من دمائهم وياليت ترويها الدموع الذوارف
ولى قصة تعيى القرائح دونها ويقصر عن تصويرها اليوم واصف
دعوت الى حرية الرأى معشراً ثقافتهم ضرب من الجهل زائف
يرون بأن العيش لذات مبطل وأن حياة العالمين زخارف
اذا لمحوا نور الحقيقة أغضوا وقالوا ألا أين الضياء المشارف
عجبت لذاك العقل حراً فما له من الوهم يمسى وهو فى القيد راسف
هو الحق فى الكوخ الحقير لجيه وليس بما ترجى هناك المقاصف
هنا تصدق الانسان عاطفة الهوى اذا كذبت رب العروش العواطف
لقد سئمت نفسى الحياة وما أرى بديلا عن الكأس الذى أنا راشف
أيجحد فى الشرق النبوغ ويزدرى ويشقى بمصر النابهون الغطارف
يجوبون آفاق الحياة كأنهم رواحل بيد شردتها العواصف
طرائد فى صحراء لا نبع واحة يبين ولا ظل من الأرض وارف
ألا إن لى قلباً جريحاً تحوطه ضمائم تنزو من دمى ولفائف
أقله أحناق دماء (٢) ولم أزل أخاطر فى الدنيا به وأجازف
كما رف نسر راشه السهم فارتقى خفوق جناح وهو بالدم نازف
أتيت الى هذا المكان تقودنى اليه عهود للشباب سوالف
وماضى غرام من غير موفق أظلته هاتيك الربى والمخارف

---

(١) الزواحف هى الزحافات التى يقال أنها عمرت الأرض قبل الانسان
(٢) دماء رمقاً

وقفت وللقلب المودع أنة يجاوبها سكب من الدمع واكف
أرتل فيها للطفولة والصبا أحاديث شتى كلهن طرائف
أودعها قبل الفراق وانما أفارقها والقلب لهفان آسف
الى حيث ينمو الرأى حرآ تذيعه من الحق فيها ألسن وصحائف
لعل بلادا لم تفنى سماؤها ولا نبهت فيها لذكرى عوارف
أعيش بها حر العقيدة وادعا واهتف أما اسعدتنى المواقف

على محمود طه المهندس

بين الشرق والغرب

عقلية استنتاجية فى الأول

تقابلها عقلية استقرائية فى الثانى

يمضى كثير من المفكرين فى ابحاث مستفيضة تتناول الاسباب التى قعدت بالشرق وصدته عن اللحاق بالغرب فى تطوره نحو المثل العليا . حتى لقد تساءل بعض الكتاب أمن فروق فزيولوجية تفرق بين الناس فى الشرق والغرب ؟

والآراء فى هذا الموضوع كثيرة متضاربة . فقد نظر البعض فى الاسباب التى صدت النصرانية ، وهى ديانة شرقية اسيوية ، عن أن تؤثر فى جو روما المدنى ، وهو جو امتزج فيه الروح الاغريقى بالنفسية الرومانية ، فتخلق من أهل الغرب أماثيبة بالامم الاسيوية تستعبدها الآخرة وتستذلها كما استذلت الوثنية أهل الهند والزرادشتية أهل فارس والاسلام كثيراً من مختلف أمم الشرق ، فنتهوا الى القول بأن السبب فى ذلك راجع الى أن فى الامم الاسيوية مدنيات امتصتها الاديان ، وفى الغرب دين امتصته المدنية . وعزوا الى هذا الامر وحده السبب فى تفوق الغرب على الشرق . على أن نظرة تأمل واحدة تزودنا بكثير من الاسباب التى تجعلنا نرفض الاخذ بهذا القول على أنه استقراء صحيح لطبيعة الحوادث .

حقيقة أن المدنية الرومانية قد رفضت الكثير من تعاليم النصرانية ، غير أن تعاليم النصرانية ، بل والاكثرية الكبرى من هذه التعاليم ، قد أثرت فى الغرب أثرها المحتوم فى خلال القرون العشرة الاولى من تاريخ النصرانية فى أوروبا . فالانصراف الى الآخرة دون الدنيا ، و « الدروشة » المتكاملة التى انتحلتها الكنائس والفضائح العظمى التى ينطوى عليها تاريخ البابوية ، كل هذه فيها من الروح الاسيوية قدر كبير ؛ بل لا ابالغ اذا قلنا انها مظاهر الروح الاسيوى فى المدنية الرومانية القديمة . غير أننا نجد بجانب هذا اخطاء واغاليط مادية كانت سببا فى تنبيه الاذهان الى الرجوع الى الدنيا دون الانصراف الى الآخرة أولا وآخراً . فان التبشير الكنسى بان القرن العاشر هو نهاية العالم وتقبل الناس

لهذا التبشير المحدود بالمكان والزمان. ثم جرى الفلك على ما كان فى أوائل القرن الحادى عشر ، كان فى الواقع أ بيرشيء نبه الاذهان الى أن الحياة الارضية جديرة بالسعى خليقة بان تحترم وأن تأخذ نصيبها من الدنيا . والواقع يدلنا على أن هذه الاغاليط المادية ، كانت السبب فى قيام حركة الاصلاح البروتستانتى . لاسيما اذا أضفنا اليها عدة اغاليط تشابهها كبيع الغفرانات وبيع دم المسيح واحتكار اللغة اللاتينية للعلم والدين والآداب فى شعوب تشعر بالكثير من العزة القومية .

هذا من الناحية الاستنتاجية الصرفة . أما من الناحية العملية فقد قال البعض إن الفرق بين الشرق والغرب راجع الى أسباب مادية كطبيعة البلاد والمناخ الى غير ذلك من النظريات التى أخذت عن العلامة « بوكل » الانجليزى .

أما السبب الأكبر الذى أراه فى تعليل الامر فيرجع الى عكوف الشرق على منطق انصرف عنه أهل الغرب الى منطق يناقضه .

لقد ورث الشرق عن القدماء منطق أرسطوطاليس الاستنتاجى الصرف —Deduction— وهو منطق يرجع الى العقل وحده دون الرجوع الى مشاهدة أو اختبار ، فى حين أن الغرب قد خلق منطقاً جديداً هو المنطق الاستقرائى الذى اتبعه غاليليو وكوبرنيكوس وكبلر وجوردانو برونو وديكارت ثم هذبه باكون بقضاياه المعروفة فى كتابه « المنطق الجديد » —Novum Organum— ثم جاء من بعد ذلك « الحكيم الكلى الحكمة » — هيوويل الايفوسى — فوضعه على الأساس الحديث المأخوذ به حتى اليوم فى ترتيب المعارف الانسانية . ذلك هو المنطق الاستقرائى — Induction — وأساسه المشاهدة والاختبار .

بهذا تميز العلم وتحدد وبهذا استطاع الغرب أن يخطو فى طريق لم يعرفه الشرق بعد . هذا عندى هو السبب الحقيقى فيما بين الشرق والغرب من فرق ، وهو سبب محصور فى تكوين « العقلية » — وهى من الأشياء التى يمكن الحصول عليها بالدربة والمران .

واليك بعض القواعد التجزيئية التى وضعها « هيوويل » . ننقلها عن كتاب بدأنا فى وضعه نلم فيه بتاريخ المنطق الجديد وطرقه وأسسه والنتائج التى يؤدى اليها .

(١) الانسان معلل الطبيعة ، والعلم هو التعليل الصحيح

(٢) الحواس تعرض لنا الصفات الكامنة فى كتاب الطبيعة . ولكن هذه

الصفات لا تنقل الينا معرفة ما ، قبل أن نستكشف « الأبجدية » التي نقرأ بها ذلك الكتاب .

(٣) إن الأبجدية التي تفسر بها الظاهرات الطبيعية ، انما تتكون من الفكرات الموجودة (أو المستقرة) في عقولنا . لأن هذه (الفكرات) هي التي تزود الظاهرات بصفتي المطابقة والخطورة اللتين هما من موضوع العقل ، لا من موضوع الحس .

(٤) إن التناقض الواقع بين الحس والفكرات ، هو أساس فلسفة العلوم ، بيد أن هذين العنصرين ضروريان بحيث لا يمكن أن توجد « معرفة » بدون اتحادهما ، ولا فلسفة بدون انفصالهما .

(٥) الحقيقة الكلية و « النظرية » تقابلان « الحس » من جهة و « الفكرات من جهة أخرى ، مادمنا « على وعي » من فكراتنا . ولكن كل الحقائق ، كلية وجزئية ، تتضمن فكرات على غير وعي منا . وبذا لا يكون التفريق بين الحقائق والنظريات من الطواعية ، بقدر ما هو بين الحس والفكرات .

(٦) الاحساسات والفكرات في معرفتنا ، كمثل المادة والصورة في الاجسام . فالمادة لا يمكن أن توجد من غير صورة ، والصورة لا توجد من غير مادة . ومع هذا فالاثنان (المادة والصورة) معينتان متقابلتان تماماً . ولكن ليس في الامكان فصلهما ولا ادماجهما . وكذلك الحال في الاحساسات والفكرات .

(٧) الفكرات احساسات « مكيفة » ، لاحساسات مهوشة . لأنه بغير الفكرات لا يكون للاحساسات صورة .

(٨) الاحساسات هي الجزء « الموضوعي » objective ، كما أن الفكرات هي الجزء الثاني Subjective ، في كل فعل من أفعال الادراك أو المعرفة .

(٩) تدل الاصطلاحات العامة على مدركات تخيلية كدائرة أو فلك سيار أو وردة . وهذه الاشياء ليست أشباحا لاشياء حقيقية ، كما كان يعتقد « الواقعيون » Realists لتصورات . غير انها تصورات لا يربط بينها مجرد « اسم » كما كان يعتقد « الاسميون » - Nomenalists - بل تربط بينها « فكرة » .

(١٠) قال البعض : أن كل التصورات ليست الا مجرد حالات أو مشاعر مرجعها

العقل . غير أن هذا القول يؤدى الى « المزج » بين ما يجب علينا تفريقه .

(١١) لكى ينتج عن الحقائق الكلية المشاهدة ، حقائق جزئية جديدة ، يتحتم أن نربط بين الحقائق الكلية بفكرة تزاد اليها . وبالاستقراء نحصل على مثل هذه الحقائق (الجزئية) .

(١٢) الحقائق الجزئية ، اذا حصل عليها بالاستقراء الصحيح ، تكون حقائق كلية . وهذه الحقائق الكلية يمكن أن نربط بينها مرة أخرى على صورة تنتج معها حقائق جزئية أرق من سابقتها . وبهذا تتقدم صوب التعميمات المتلاحقة .

(١٣) تكسب الحقائق التي نحصل عليها بالاستقراء ، صفتي البقاء والاستمرار ، بأن يعبر عنها باصطلاحات علمية .

(١٤) التجربة لا يمكن أن توجهنا الى حيث نعثر على الحقائق الكلية ، ولا على الحقائق الضرورية . أما انها لا توجهنا الى حيث نعثر على الحقائق الكلية ، فذلك لان التجربة (الانسانية) لم تسع كل الحالات الطبيعية . وأما من حيث الحقائق الضرورية ، فلأن « الضروريات » ليست من الاشياء التى يمكن أن تخضع للتجربة ان تمتحنها لتعرف مقدار الحق فيها .

(١٥) تستمد الحقائق الضرورية صفة « الضرورة » من الفكرات التى تتضمنها ، ووجود الحقائق الضرورية برهان على وجود فكرات ، ليست التجربة منشؤها .

(١٦) فى التفكير الاستنتاجى Inductive لا نستطيع أن نحصل فى النتيجة على حقيقة ، لم تتضمنها المقدمات مبدئياً

(١٧) العلوم التى تعتمد فى وجودها على فكرتى الزمان والعدد هى علوم مجردة لا علوم استقرائية . أنها لا تخرج نظريات خاصة من حقائق كلية . بل تستنتج النظريات من الفكرات . أما العلوم المجردة الأولية — وبالأحرى الرياضيات المبدئية — فهى الهندسة والحساب النظرى والجبر .

(١٨) الفكرتان اللتان تعتمد عليهما العلوم المجردة هما فكرتا المكان والعدد . غير أن العدد عبارة عن تكييف مستمد من تصور التكرار ، الذى هو تابع لفكرة الزمان

(١٩) أن فكرة المكان لا تستمد من التجاريب ، لان تجاريب الاشياء الخارجية تفرض بديا وجود اجسام فى المكان . ان المكان ليس سوى حالة يتقبل العقل تحت تأثيرها منقولات الحواس . وبذلك تصح علاقات المكان ، ضرورة وعلى وجه عام ، على كل الاشياء المدركة بالحواس . إن المكان صورة من مدركاتنا الحسية ،

وهو فوق ذلك ينظم هذه المدركات ، بصرف النظر عن المادة التى تتكون منها (هذه المدركات)

(٢٠) المكان ليس تصورا عاما جمعت أجزاؤه مقتطعة من حالات خاصة . لاننا لانتكلم فى أمكنة على وجه عام ، بل فى مكان عام ، مطلق ، والمكان المطلق غير محدود . كل الامكنة الخاصة انما يتضمنها المكان ، المطلق ، وماهى الا أجزاؤه .

(٢١) ليس المكان بشىء او موضوع حقيقى ، معين او منفصل عن الاشياء التى توجد فيه . ولكنه حالة حقيقية يخلقها وجود الاشياء او الموضوعات الخارجية

(٢٢) فينا احساسات بالاشياء الموجودة فى المكان . أى أننا ، نفكر ، فى أن الاشياء مكونه من أجزاء خاصة ، وندرك علاقاتها المكانية بنفس الفعل الذى ندرك به الاشياء ذاتها

(٢٣) الصورة أو الهيأة عبارة عن مكان محدود بحدود معروفة . وللمكان بالضرورة أبعاد أو امتدادات ، الطول والعرض والعمق . وليس من أبعاد أخرى يمكن أن لا توجد فى هذه الابعاد .

(٢٤) تحقيقاً لاغراض العلم ، تستعرض فكرة المكان بتعاريف وقضايا أولية وضعت فى علم الهندسة ، ومثلها . تعريف الزاوية القائمة ، أو تعريف الدائرة ، أو تعريف الخطوط المتوازية . أو القضايا الاولية الخاصة بها ، ومثل القضية الاولى فى أن الخطين المتوازيين لا يحدان مكانا . وهذه التعاريف ضرورية الاختيارية . والحاجة الى القضايا الاولية كالحاجة الى التعاريف ، من أجل أن نعبر عن الحالات التى تعرضها علينا فكرة المكان

(٢٥) إن التعاريف والقضايا الاولية الموضوعة فى علم الهندسة المبدئى ، تعرض لنا بوضوح فكرة المكان . فاذا تقدمنا الى الهندسة العليا ، فاننا نستطيع أن نضيف قضايا أولية أخرى مستقلة عن التعاريف والقضايا التى يمدنا بها علم الهندسة المبدئى . ومثلنا قضية ارخميدس فى أن الخط المنحنى الذى يصل بين نقطتين ، يكون أقل طولا من أى خط منكسر يصل بين النقطتين مارا بالخط المنحنى .

هذه صورة نعرضها من المنطق الاستقرائى الحديث . وهو منطق الحياة الغربية التى تستمد منه مكونات العقلية الحديثة . ولاجرم أن الشرق فى مستطاعه أن ينتحل هذه العقلية ليجارى الغرب من مضمار الحضارة بطرفيها ، تفكيرا وعملا ، اذا أكب أهله على تفهم هذا المنطق واستيعابه ليكون للمعرفة أساسا تقوم عليه .

السكينة

تلك الجلالةُ فى نفسي ، وقد عَظُمَتْ | تلك الجلالةُ حتى شابهَتْ جَبَلاً
تكسو مراقيَهُ الأعشابُ حاليةً | كرحمة الله تكسو عبدَهُ أملاً

* * *

وأنتِ كالنيلِ يجرى فى وداعتهِ | بين المروج كأحلامِ المحبينا
يلقى على شاطئيهِ وهو مبتسمٌ | وسائلَ الخصب تُحيينا وتُنمينا

* * *

يلقى عليه جلالاً من أشعته | البدرُ فى تمّه ، والنجمُ إشعاعا
والليل يغمر هاتيك الربوعَ وفى | طياته الصمتُ يخفى كلَّ ماراعا

* * *

وأنتِ كالفجر يسمو بالنفوس الى | مجالىَ الرُّوح . صفوٌ شاملٌ فيها
كبسمة الغيدِ تحوى فى بساطتها | معنًى من الحسن يبدو فى تساميها

* * *

بل أنتِ كالقلب صاف لم تكدرهُ | مشاغلُ العيشِ ، والأحلامُ تعلوهُ
أما الصفاء فيكسوه جلالتَهُ | ثوباً من الأمن ، والايمانُ يجلوهُ

* * *

وأنتِ مثل حنان الأمّ قد سهرتْ | على ابنها وهو فى آلامهِ ثاوى
يساجل الدمع عينيها وقد شَخَصَتْ | الى السماء ترجى البرءَ للذاوى

* * *

وأنتِ كالنورِ في الظلماءِ منبعثٍ ... يهدى السبيل الى السَّراء حيرانا
بل أنت كالظلِّ ترتاح النفوسُ له ... عند الهجيرة تلق الشمسُ نيرانا

***

بل أنتِ أثمن ما في العيش من نِعَمٍ ... بل أنت أعظم تقديرٍ وإنعام
يلق الملكِ الورى أحلامهم أملاً ... في أنْ يروْا راحةً في ظلكِ السامى

***

فما يؤوب المرجّى خائباً أبداً ... بل كلّه ألسنٌ بالشكر لاهجةٌ
فروحه عن معانى الحمد باحثةٌ ... وكفّهُ لبرودِ الشكرِ ناسجةٌ

***

يغشَى الظلامُ ويعلو الموجُ مضطرباً ... ويقصف الرعدُ بل تعوى بنا الريحُ
وفي الطبيعة أسبابٌ إذا زأرت ... ريعت لها جنباتُ القلبِ والروح

***

وبعد ذاك نرى غيماً قد انتشرت ... في الارض تملأها يُمْناً وآمالا
نهيُ العرش. من هذا المليكُ؟ هو ... رمز الصفاءِ تجلّى بعد ما زالا

***

هي (السكينةُ) فليأتِ الجميعُ الى ... ساحاتها يرتجون الأمْنَ والرّاحا
روحٌ من الله تسموفى وداعتها ... تُبارِكُ الناسَ أجساماً وأرواحا

حسين كامل الصرفى

شيطان بنتؤور

(المحادثة الحادية عشرة)

قال الهدهد : لما كان الغد ، ورد فى الجرائد من جملة الفوائد ، ان عرابي (١) زعيم الثورة المشهورة ، والرميم الباقى من تلك الفئة المقبور ، يصل الى القاهرة عصر اليوم ، ويرده الزمن النكد الى القوم . فقلت فى نفسى بئس اليوم ، مضت فيه المدة على الجناية ، وختمت به فصول الرواية ، ونحن فيه ما كنا بالامس ، أخلاق خلقة ورابطة ممزقة ، وقلوب متفرقة ، وآمال بالصغائر معلقة ، وعقول للاباطيل مصدقة ، ونفوس الى غير المجد شيقة ، تغالطها فى حقائق الاشياء ، وتمدها فى المداهنة والرياء ، وتحملها الحسد والحقد والبغضاء ، ولا تردها الى صحيح اعتقاد فى معاش ولا معاد . وليس الرجل فى اعتقادى ـ بصرف النظر عن عظم جنايته وما حل به الظنون من تهمة الخيانة ـ من رجال التاريخ وأن حسب عليه ظلما ، ولا أجد له مثلا فيه إلا بعض المخلوقات المكرمة مما ذكر فى الكتاب أو حفظ فى التاريخ ، مثل هدهد سليمان وابد لقمان ، ونملة القرآن ، والنعامة ، وبغلة ابى دلامة ، والحمام والعنكبوت ، وذلك الحوت ، وابيس المصريين ، وأوز الرومانيين ، وكبش اسماعيل ، وبقرة بنى اسرائيل والغراب الذى أزال حيرة قابيل ، وبوسيفال مطية الاسكندر ، وفيل ابرهة ، وحمار المسيح ، وناقة صالح ، وأنثى الذئب التى أرضعت رومولوس مؤسس الامبراطورية الرومانية ، وأبى قيس قرد اليزيد ، وأسد بن طولون ، وثعبان كليوباتره ، وكلب أصحاب الكهف . ويؤخذ من أحاديث الناس عنه فى أول أمره وما ظهر فى زمن الثورة من سعيه فى

---

(١) المصور ـ هذه أقوال أملتها حاجات العصر البائد وهى أثر من آثار الحملة الكبيرة التى كانت تديرها السراى فى عصر الخديو السابق ضد عرابى أول قائل «مصر للمصريين» وحامل لواء القومية المصرية فى عصر السلام والبطل الاول من أبطال الاستقلال . ومن غريب أمر هذا الرجل العظيم بحق ، والمنكود الطالع بحق أيضاً أن تطبع مذكراته فى مصر ، ويمضى فى سبيلها أحد أولاده بما عرف لدى الخليفة اليمن المال ، فلا يحرزها الا شركات ... نسخها اكثرهم هدايا من ولده البار بذكرى والده المبرور ، ولا يكتب عن هذه المذكرات الا كاتب واحد يعرفه محرر المصور حق المعرفة

تجسيم الشر ، وعمله على توسيع الخرق ، إن أمره مروم وأنه حاول أن يغير الحال ، وسعى لما يسمو اليه عظماء الرجال فخدع الامة ثم انخدع بها (١) ، وساق الحكومة ثم انساق بها ، واشتد عليه الموقف فدخل فيه صغير العقل ، وخرج منه صغير النفس : همة كبيرة صغرها الجهل ، وحب للحرية أفسده الطمع ، والرجل من هذه الوجهة لايخلو من فضل ولو تخرج في المدارس الحربية ، ونشأ في السياسة نشأة تليق بالعصر الذي ظهر فيه ، ثم علق آماله بالمقبول المعقول من الامور ، وبنى مطالبه على الحرية المعتدلة ، لنال بالجد كل مرام ، ولبلغ مراتب الرجال العظام .

(قال) وكان موعدي مع النسر أن نلتقي في مجلس عمرو . فلما كان الاصيل خرجت الى الفسطاط ، في زي قبس من الاقباط ، كما سبق بذلك الاشتراط ، وأنا انتظر من الاستاذ أن يرى في (عرابي) رأيه ويقول فيه كلمته ، واعلم أنه كبير الانظار في الحوادث الكبار ، قوله في الامور الفصل ، وحكمه على الرجال العدل . فحين بلغت مدينة ابن العاص التي فتحها للاسلام بالرأي قبل الفتح بالسيف ، وافيت مقر الامارة ، وهناك ما كان أسهل الوصول ، وأيسر الدخول ، رفعت الحجب بين عامل عمر ، وبين الزمر ، واقتدى به وجوه العرب في سلوكهم ، والناس على دين ملوكهم . فاستقبلت مجلساً أليق بالوعاظ والعلماء ، منه بالملوك والامراء ، وقدمت على أمير تاجه العمامة ، ومطرفه القباء ، وصولجانه السيف ، وكرسيه التراب وحاشيته الاصحاب وقصره خيمة محدودة الاطناب ، يحيط به العرب وكأنه أحدهم . وهو زعيمهم في مصر وسيدهم .

وكان النسر بين يديه ، قد سبقني اليه . وهو يبالغ للعامل في الخطاب ، ويلقى السؤال ، ويأخذ الجواب . فسمعته يقول : —

« هذه دنياكم يا ابن العاص لاتغترون بها ، ولا تغفلون عنها ، وأنها لدنيا العقلاء ، وطلبة الحكماء . فكيف دينكم ؟ »

قال : أسهل وأيسر وأسمح . الشهادة وهي كلمة ، والصلاة وهي عصمة والزكاة وهي

---

(١) العصور — آماله خدع الامة فلا . وما له انخدع بها فنعم . وأما انه ساق الحكومة فنعم . وأما انه انساق بها فلا . وهكذا لنا اختلفت تجارب على هذه القضايا الثلاثة بنعم ولا ، مع اختيار الموضع الذي توضع فيه كل منها بما يطابق الحق لخرجت بنتيجة اخرى .

رحمة ، والحج وهو لحكمة ، وماسوى ذلك فزيادة فى العبادة أو بدع تأتى بها الايام وأغراض لايصدأ بها جوهر الاسلام ».

قال « نعمت الدنيا لو لم تزل عن الخلفاء ، وتؤول الى الملوك والامراء . وحبذا الدين لو سلم من عبث الفقهاء ، وعبث الجهلاء . قال : « وما يمنعك أيها القسيس أن تستقبل هذه الدنيا وتدخل فى هذا الدين » قال : « انى أتبع دينا يقال فيه فى جملة الدعاء به

« إيزيس لو لم تتوحدى لما كانت الأشياء . ولن تصل الى حواشى حجابك يد الاحياء . فالمعبود اذا واحد وأن اختلفت الاسماء ».

قال : « أى الاديان هذا »قال : « دين المصريين القدماء » قال : « عجباً أفى مصر بقية من القوم؟ » قال « : ليس للظالم دين يا ابن العاص . والرومان قوم ظالمون دخلوا هذه البلاد فافسدوا فيها وهدموا مابنى أصحاب المسيح عليه السلام بزهدهم وتجردهم وتسمحهم من بنيان للنصرانية متين ، وركن للمسيحية مكين . وغادروا مصر لا تخلو من عاكف خاصة فى سريرته على دين آبائه وأجداده . وأنا من هذا الفريق » قال: « الآن انهاك عن عبادة الأصنام ، وآمرك بالدخول فى الاسلام ، إما أن تقبل ، وإما أن تقتل » قال « : القتل أحب إلى يا ابن العاص . ولكن لى كلمة أقولها وأرجو أن تسمعها » قال : « هات » قال « على التمسك بالدين قامت دولتنا القرون الطوال ، ومن شدة التمسك به أدركها الزوال ، فذهبت من أجل (عرر) وأمست احدى العبر ، ولا أكره أنا أيضا أن أذهب على الأثر ».

(قال الهدهد) فلم أدر بالاستاذ إلا وقد عاد سيرته الأولى ، فاذا هو نسر يطير بين أعين القوم ، وهم من أمره فى أعظم الدهش . فلحقت به وما زلنا نقف الافق حتى هبطنا ناحية من الفسطاط فتمثلنا كما لو كنا قسيسين من الأقباط ، وهناك التفت إلى وقال: « كيف وجدتنى وصاحبك؟ » قلت : « ألانك وجه الامر ، وخاشن آخره » قال: « بالحق خاشن ، وبالحق لاين . لان مقاومة الانانية فرض على نصراء العقل ، وحماة الحقيقة ، وقد تكفل بها الاسلام لسائر الملل ».

قلت قد كان لك غنى يامولاى عن التكشف له واطلاعه على حقيقة معتقدك . قال أردت أن أريك كيف يحفظ القوم دينهم فى الكبيرة والصغيرة . قلت ماذا يرى مولاى فى عرابى وقد عاد وردته الجوارى بالنحس إلى البلاد ؟

قال كيف خلفت القوم بازاء عودته ؟ قلت تركتهم ينظرون إلى الجانى ولا

ينظرون إلى جنايته ، ويبرئه أجهل الناس به ولايهتف هو ببراءته »

قال: «عجبا لكم معشر المصريين! أنتم أمة التاريخ ، وليس لكم فيه كتاب؟ هلا تشبهتم بآبائكم الاولين! فلقد كان الواحد منا أحرص الناس على حديث بعده يؤيده ، فى حجر يشيده ، وذكر مع الزمن يخلده ، فى أثر ينضده »

« وكان أحب الأعمال إلى ملوكنا وضع التاريخ وتدوين السير ، لعلمهم بان التاريخ دليل الأمم ومرشد الشعوب ، وان قوما لايعرفون ماضيهم لا يكون لهم بحاضرهم اعتناء ، ولا فى آتيهم رجاء ، أليس عارا عظيما على الشرقيين وفيهم اليوم العالم الذكى ، والكاتب اللامعى ، أن لا يعلموا من سيرة الأمير عبد الرحمن المتوفى بالأمس غير ما تنقله صحف الغربيين ومجلاتهم ؟ وعليكم معشر المصريين خصوصا أن تظل الحوادث العرابية حتى الآن مقلوبة الحقائق ، مجهولة الدقائق ، يؤخذ الميت فيها بذنب الحى ، وتلصق بالحى فى مداراة الميت؟ تطلقون فيها عن الهوى، وتحكمون على محدثيها بمقتضى الهوى ، ولو دونت حق تدوينها لكان فيها لكباركم مزدجر، ولصغاركم مع الأيام معتبر »

قلت : «ما سألت هذا يامولاى ، ولكن سألت رأيك فى عرابى » قال: «لا رأى لى فى الرجل ولما يمثله التاريخ للناس ، وانما أسترعيك القضية لا تفوت أهل النظر ، فى أحوال البشر ، والباحثين فى طبائع الاجتماع» قلت: «وما تلك يامولاى» قال: «يدهش الناظر المتأمل والباحث المدقق لما يرى من التفاوت البين فى الاخلاق والتباين الظاهر فى الطباع بينكم معاشر النازلين هذا الوادى فى شمال افريقيا وبين أمة البربر سكان الجنوب ، ويحار فلا يدرى بأى الآراء الثلاثة يأخذ والى أي المذاهب الثلاثة يرجع

أيذهب مع القائلين بفعل البيئة فى الامم وتأثير الاقليم فى الشعوب ، وسلطان المقام على المقيم ، فيحكم أن جار الليث أسد ، وجار العير وتد ؟

أم يجارى الذاهبين الى أن اختلاف الطبائع ليس الا نتيجة اختلاف الاجناس ؟

أم يعتمد على رأى القائلين بأن العقل البشرى ، وهو مركز القوى المدركة فى الانسان ، والنفس وهى مهبط الفضائل أو الرذائل فيه ، ليستا إلا هبتين يشترك فيهما

أصناف العباد، وأن تفرقوا فى أطراف البلاد، وإنما يصح العقل بالتعليم الصحيح وتقوم النفس بالتربية الحقة ؟

على أننى الى هذا الرأى الثالث أميل، وعليه فى اعتقادى المعول، فلو أن عرابى وجماعته عرفوا القرآن عرفان كروجر وقومه للانجيل، فلم يخلطوا الدين والبدع، وكلاهما عند أكثركم شرع، أو أن عقولهم نورت بالعلم الحقيقى ونفوسهم هذبت بالتربية السليمة، لاجفلوا عن الثورة فى أولها، أو لسلموا بأعراضهم فى آخرها، ولكن قلة العلم وفساد التربية قعدا بهم عن مقاومة الاستبداد فى أبانه، ودفعا بهم الى الاهتمام بشأنه، بعد انقضاء زمانه، وهاتان هما بلية الشرق وآفة سكانه. على أنكم اليوم لا تزالون فى فضاء من أمركم، إن شئتم نهضتم، وإن شئتم ربضتم. مظالم نائمة، وحرية قائمة، وأقلام مادحة لائمة. فعليكم بالعلم خذوه نافعا رافعا، وانجروا منه ما يميت الى ما يحيى، واطلبوه لدنيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبداً أو لآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غداً.

وعليكم كذلك بالتربية فانها باب مدينة العلم، لا تدخل الا منه، خذوا صحيحها ولا تأخذوا فاسدها، واطلبوها لانفسكم فان كبرت عنها فلابنائكم. فان لم تكمل لهم كملت لابنائهم من بعدهم. وكونوا (الحفظة) الذين تكرم عليهم بلادهم فى الشدة أضعاف ماتكرم عليهم فى الرخاء، يبكونها بالدموع آونة، وفى القلوب آونة. لايغفلون لها عن حرمة، ولا يقصرون لها فى الخدمة، حبهم لها العشق، لا التفات فيه الى ملامة، ولا قيمة معه للسلامة، أعمار الافراد قصار، والامم طويلة الاعمار، وآمال الواحد الفرد تفوت بموته، وآمال الجماعة لاتفوت، وانما هى لهم مثل الورق للشجر، ينزعه حينا ويكساه حينا.

وما بنى قوم بناءهم فى المجد ولا قامت سعادة أمة الا على العلم والتربية، وهما انما يحصلان فى المدرسة، وليس مايمنعكم من انشائها، فاذا انشأها غنيكم غير مسرف، ودخلها الكهل بالليل غير مستكف، ولزمها الصبى بالنهار غير متكلف، وأخذتم العلم فيها كما يريد زمانكم الذى أنتم مخلوقون له ان يؤخذ، فقد استقبلتم الحياة من وجهها الحق، وأخذتم التقدم العصرى بالسبب الاوثق.

اللغة رأس مال الامة فى العلم والعرفان، والدين رأس مالها فى التربية والاخلاق

فاجعلوا الحقل الاول فى مدارسكم لهذين . فالثمرات انما تأتى بقدرها . الانسان اذا علم كان انسان العين . واذا جهل كان انسان الغابة . والعلم أن لم يتأسس بالتربية . كان لحامله محنة . وللناس فتنة . فاجمعوا بينهما فى الدار . ثم فى المدرسة . ثم فى الحياة . تلك المدارس الثلاث الكبر .

«أما الدار فالاستاذ فيها المرأة . وأما المدرسة فالمعلم فيها الرجل . وأما الحياة فالمربى فيها الزمن »

« فابدءوا بالنساء فعلموهن فى الصغر . يعلمنكم فى الكبر . وربوهن فى الطفولة . يربينكم فى الكهولة . ولا تنشئوا مدرسة واحدة للرجال الا وقد أنشأتم مدرستين اثنتين للنساء .

« اذا اشتغل الحليم بالسفيه شارف على السفاهة . واذا اشتغل العالم بالجهول شارف على الجهالة . وأكثر ما ينتشر السفهاء والجهلاء . وأشد ما يكون اقدامهم وايغالهم فى الأمم . وهى فى بداية نهضتها .

« فمثلها عندئذ كالأنهار الكبيرة فى أزمنة الفيضان . تسرق الأقذار فتساق بتيارها . وتختلط الخبيث بالطيب . ثم لاتلبث أن تلفظ الفاسد وتستبقى الصالح ، فيصلح الماء . وتفيض الخيرات على البلاد والعباد . فلا يثبطن الشامكم كرامكم . ولاتلقوا للصغائر مما يحدثون بالا . واعملوا كل بما تعلم من علم أو صناعة . واتقنوا العمل ، فان اتقانه يلقى عليه اليمن والبركة . ويولد بين العاملين المنافسة والمسابقة والمزاحمة ، وعلى هذا تقوم حياة الأمم . كما تقوم حياة الافراد على دورة الدم .

« ليس بين دبيب الحياة فى الامة وبين ظهورها كاملة الادوات ، تامة الصفات الامثل ما يخفق فؤاد الجنين اول وهلة ، ثم تمسك الحياة فيه بعضها بعضاً . وينمى بعضها بعضا فلاتزال به حتى تخرجه إلى الوجود ، فيؤدى فيه وظيفته ، ويستوفى فيه برهته ، ولو أجد مثلا لما أصف الا أمة اليابان ، وأنها الدليل حاضر ، و شاهد معاصر .

« على أن الحياة ربما كانت أسرع جريا بالأمم منها بالافراد ، فقد جاوز اليابانيون اطوارها الاول الى هذا الشباب المرجو المخائل المبشر ببارك الاعمار فى المدنية والحضارة فى نحو ربع قرن من الزمن ، وهى برهة قد لاتكفى الواحد من الافراد ليبلغ فى الصبا أملا ؛ أو يحسن فى الحياة عملا . »

(قال المدعد) كان الشمر يتكلم وكأن كلامه حديث الحبيبة تأخذ الآذان ، وهو

يأخذ الوجدان ، بيد أنه حكم عزز ، وحقائق كبر ، تستوجب النظر ، حتى أمسك عن الكلام ، فوددت أنه لم يمسك . وقلت له : « لو خيرت يامولاي فيما أريد لما اخترت الا أن يبعثك الله فتمشى فى القوم خطيباً هادياً . وطبيباً مداوياً . تتبع أقصى الداء ، وتصف عزيز الدواء »

قال : « ليكونن لى ولكم شأن يوم يجمعنا القاهرة » قلت : « ومتى تدخلها يامولاى؟ » قال : « يوم يقتل عثمان ويصير أمر العرب من الخلافة الى الملك . فهناك انفض يدى من دولتهم واصدر بك عن الفسطاط . وارد القاهرة - عاصمة مصر الحاضرة » . ثم أخذت النسر الاغفاءة المعتادة فتثاءب وقال كلمته المألوفة اذا جاء الليل ذهبت الشياطين وموعدنا غداً دار العجوز . وأصابنى مثل ما أصابه ، فما هى الا غمضة عين ثم انتباهة حتى رأيت الفسطاط واطلالها . وحاذيت فى القطار تلالها . فعجبت للحال وتحولها . والزمن وتنقلها . وأخذت فى نفسى على النسر هذا الرجوع الى الخلط فى المواعيد . وأتعاقى بدار العجوز أنشدها ولا أنشدها : « أهلا بدار سباك أغيدها »





أقصوصة

سبيل الخلاص والحرية

كان فيليب جالسا فى ركن هادىء من القاعة الداخلية للمقهى تبدو عليه آثار الحزن والتأمل وهو يحدق فى آلة الفتوغرافيا الصغيرة الموضوعة امامه على الخوان حين دخل عليه صديقه جورج ، فما ان رآه على تلك الحال حتى تقدم نحوه وسحب كرسيا فجلس عليه وحيا صديقه قائلا :

— ما لك مطرق هكذا يا فيليب وفيم تفكر .. وما هى المناظر الجديدة التى تتخيلها ؟

فرفع فيليب نظره الى صديقه وفاه بكلمات غير واضحه . فاضطجع جورج فى مقعده الى الوراء واشار الى آلة الفتوغرافيا الموضوعة على الخوان وعاد فقال :

— اقول لك ما هى المناظر الجديدة التى تفكر فيها الآن ؟

فأجاب فيليب وهو ما يزال غارقا فى تفكيره : « شىء مؤلم جدا ! »

وحضر النادل (الجرسون) فامره جورج بأحضار كأسين من الوسكى ثم التفت الى صديقه متبسما قائلا :

— ارنى هذه الصورة التى فى يدك فتنهد فيليب ومد يده بالصورة الى صديقه دون ان ينبس بكلمة . . وتناول جورج الصورة وجعل يتأملها بعين السرور التى ننظر بها الصديق الى منتجات صديقه . . وهى قد كانت صورة فوتوغرافية صغيرة ولكنها دقيقة ، وتظهر فيها سيدة بدينة تهم بركوب سيارة مليئة بالحقائب . . فبعد أن تأملها جورج هنيهة مد يده بها يعيدها الى صديقه قائلا :

— صورة جيدة هذه يا فيليب . أليست زوجتك ؟

فأومأ فيليب ولم يجب وعلائم الحزن لما تفارقه

واستتلى جورج قائلا :

— العلك اخذت لها هذه الصورة وهى مسافرة ؟

فتنهد فيليب تنهيدة عميقة وأجاب :

— نعم ، اخذتها لها وهى مسافرة او بالاحرى وهى مغادرتى حيث قد افترقنا .

فتراجع جورج قائلا :

— افترقتما !؟ ياللهول !! وكيف كان ذلك ؟

اجاب فيليب متأوها :

السبب كله يرجع لهذه الفتوغرفيا (الآلة) الملعونة . . .

فرفع جورج حاجبيه مدهوشا قائلا :

— لست أفهم جيداً كيف يمكن أن يكون التصوير الفوتوغرافى سبباً فى افتراق الزوجين . . فأرجوك زيادة الايضاح .

فاعتدل فيليب فى مقعده واضعاً يسراه على ركبته ويمناه على الخوان ، ولم تفارقه تقطية جبينه وقال :

— المسألة فى غاية البساطة ! ! أنت تعلم هيامى بالتصوير الفتوغرافى واهتمامى به منذ حصلت على هذه الآلة من نحو سنتين تقريباً ، ولعلك تذكر انى ربحتها فى احدى المسابقات المشهورة التى تقيمها الصحف والمجلات لتجتذب اليها أكبر عدد ممكن من القراء . . . فمنذما ربحت هذه الآلة جعلت أمرن على استعمالها حتى لهتنى عن كثير من الملاهى الأخرى . . . ولكنها لم تلبث أن ملكت فؤادى وشغلت بالى عن كل ما عداها حتى كانت لا تفارقني ولا أفارقها إلا ساعة النوم . . .

فأومأ جورج مؤمنا على كلام صديقه الذى سكت هنيهة ليستروح ثم استمر قائلا :

— وكنت كل يوم أزداد شغفا بالتصوير الفتوغرافى فلا أسير إلا والكاميرا الصغيرة معى وجيوبى ملأى بالصور والأفلام حتى لا يفوتنى التقاط أى منظر أرى أن أسجله ، وكنت أصور فى اليوم الواحد عشرات الصور ، وأصبح شغفى بالتصوير طبيعة ثابتة فى نفسى حتى لقد كنت ألتقط بعض المناظر دون أن أفكر فى التقاطها . . وفى الوقت الذى لا أصور فيه أكون مشتغلا بتحميض الافلام أو إظهارها وطبعها . فلم أعد أعمل شيئاً أو أفكر فى شىء إلا التصوير الذى ملأ حياتى كلها . . .

فقاطعه صديقه : « أظن أن زوجتك قد اعترضت على ذلك ؟ » .

أجاب فيليب مبتئساً : « نعم ، لقد كانت تعترض وتحتج وتتوسل إلى المرة بعد

التعليم فى مصر

الحاجة الى اصلاحه عاجلا

«وستوالى حكومتى عنايتها باصلاح نظام التعليم العام والتعليم الفني من صناعى وزراعى وتجارى لتساير حاجات البلاد فى نهضتها العامة» (من خطاب العرش فى ١١ شهر يناير سنة ١٩٣٠)

حول تقرير المستر مان Mr. F.O.Mann الخبير الذى انتدبته الحكومة المصرية لفحص نظام التعليم فى مصر وقد قدم تقريره فى شهر نوفمبر الماضى

لاريب أن التعليم فى مصر من أهم المسائل التى تواجه الحكومة الحاضرة وما قد يليها من حكومات إذ هو فى الحق إما أن يكون عاملا قويا لخيرها (أى خير مصر) وإما — لاقدر الله — معولا قاسيا فى خرابها ودمارها

ومع أن مصر قد تصل الى عقد معاهدة مع انجلترا تضمن بها استقلالها، فانها لن تستطيع المحافظة على هذا الاستقلال إلا اذا أصلحت أساس التعليم فيها ليتسنى لها أن تسترق حاجتها من عقول بنيها النيرة بغيرها من الأمم المتمدينة التى تجد فى عقول أبنائها ما يغنيها عن التماس العون من أبناء أمة أخرى مما يشعر الأمة المستعينة بالصغار والانحطاط عن تلك الأمة الأخرى التى تقدم لها المعونة .

والمصريون يدركون هذه الحقائق ادراكا تاما تجلى أثره مراراً وتكراراً على صفحات الصحف وعلى ألسنة الناس حتى فى أشد الايام حلكة عندما كان الامر والنهى فى وزارة المعارف — لابل فى كافة الوزارات والمصالح — للرؤساء الانجليز . فكنت لا تفتأ تسمع التذمر من كل جانب من سياسة دنلوب التعليمية التى لم يكن يقصد بها الا اخراج أنصاف أو أرباع متعلمين لا هم لهم إلا التربع فى وظائف الحكومة يحركهم الرؤساء الانجليز كما يحرك لاعب الشطرنج قطعه . . .

وكم من صيحات على صفحات الصحف ومن فوق المنابر نادت بوجوب اصلاح التعليم فذهبت مع الرياح !! ولكننا الآن نجتاز مرحلة لانغالى إذا وصفناها بأنها شائكة ، لاينجينا منها إلا أن نتحرز من الاصطدام بأشواكها حتى نقف مرفوعى الرؤوس . وهذا لن يكون إلا باصلاح التعليم

ولقد انتدبت وزارة المعارف العمومية فى العام الماضى مستر مان لفحص نظام التعليم الابتدائى والثانوى والفنى والصناعى والمعلمين ، فقضى هذا الخبير نحو عام يبحث ويفحص ويدقق ثم قدم تقريره فيما يقرب من ١٤٠ صفحة كلها ناطقة بعدم صلاحية نظام التعليم الحالى منادية بوجوب اصلاحه وليساير حاجات البلاد فى نهضتها العامة . (خطاب العرش)

ومما لفت اليه التقرير النظر بوجه خاص أن المدارس التى تسير على نهج الطريقة الاوروبية سواء كانت إبتدائية أو ثانوية توجه جل اهتمامها إن لم يكن كله نحو انجاح أكبر عدد ممكن من التلاميذ فى الثلاثة الامتحانات العامة التى تقيمها وزارة المعارف فى كل عام لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية . ثم أشار إلى الاهمية الكبرى التى يعلقونها — التلاميذ وآباؤهم — على احراز الشهادات إلى حد أن النجاح أو الفشل فى احرازها لاول مرة فى دخول الامتحانات العامة ، يبقى صفة ملازمة للناجح أو الفاشل طول حياته : فيقال دائما أن فلانا نجح فى جميع الامتحانات بغير فشل ولا سنة واحدة ، أو فشل فلان فى امتحان سنة كذا . وليس أدل دليلا على تأثر الجماهير بهذه الظاهرة أقوى مما تنشره الصحف عقب ظهور نتائج الامتحانات العامة من أخبار انتحار التلاميذ الذين لم يجوزوها . ومن رأى مستر مان أن نتيجة ذلك هى أن « الآباء المصريين يترسمون خطى آلهة التعليم الزائف » . ثم تذهب الجماهير حاملة على الحكومة منادية بوجوب زيادة الفصول والاماكن فى المدارس الثانوية أكثر من حملهم عليها لزيادة المحلات فى المدارس الابتدائية ، وحجتهم فى ذلك أن الطالب يجب أن يداوم على الدرس والتحصيل بسرعة حتى يكون لديه المحصول الكافى ، وقبل أن ينساه ، ليجوز الامتحانات . فتكون النتيجة أنه بدلا من أن يعم التعليم جميع أبناء الامة يصبح قاصرا على فئة قليلة من خريجى المدارس الثانوية

ومما لاحظه مستر مان أن نفقات التعليم العالى فى مصر تزيد كثيرا على نفقات التعليم الابتدائى ، وذكر على سبيل المقارنة أن انجلترا — وهى أمة صناعية وأكثر حاجة الى التعليم العالى — تنفق عليه جنيها واحدا مقابل كل أربعة جنيهات تنفقها على التعليم الابتدائى بينما انما تنفقه مصر هو جنيه واحد على التعليم الابتدائى مقابل كل جنيهين تنفقهما على

التعليم العالى ، بل ان ميزانية سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ التى بلغ ما أنفق منها على التعليم بأنواعه مليونان ونصف المليون من الجنيهات لم ينفق منها على التعليم الابتدائى إلا خمس (جزء من خمسة) هذا المبلغ ، ويرى مستر مان أن المدارس الابتدائية يجب أن تتسع لمليون ونصف مليون طالب وهى لا تسع فى الوقت الحاضر أكثر من ٥٣١٫٠٠٠ تلميذ . إنحاجتنا الى انتشار التعليم الابتدائى أشد ما تكون فى الوقت الذى أصبح نظام حكومة مصر فيه ديموقراطياً نيابياً على أساس الانتخاب المباشر

ولم يفت مستر مان ما ضج المصريون منه بالشكوى منذ أعوام طويلة . فذكر أن التعليم الثانوى الذى تطمح اليه أنظار الطلاب الذين يجوزون مرحلة التعليم الابتدائى يعتبره هؤلاء الطلاب وسيلة للدخول فى خدمة الحكومة التى هى غاية ما تؤمل فيه أكثريتهم، والسبب فى الميل لخدمة الحكومة وتفضيلها على سواها ، هو الضمان الذى يشعر به موظف الحكومة دون أن يضطر إلى الكفاح والمنافسة اللازمتين فى غير وظائفها

وهنا يحمل مستر مان على نظام التعليم الاوروبى حملة شعواء إذ يقول : « ثمة كثيرون من المصريين يقومون أثناء الصعود الشاق الى المناصب الرفيعة ، وهذا هو نتاج الطريقة الاوروبية التى تقذف فى كل عام عدداً متزايداً منهم فتتراكم البقايا فوق بعضها من حطام كانوا تلاميذاً فأصبحوا عاجزين عن مواصلة السير بالحياة فى الطريق التى هيأوا أنفسهم لها فى الصغر (باعتبار أنها تنتهى بهم إلى الوظيفة الحكومية) كما أصبحوا من الجهة الاخرى عاجزين عن أن يجدوا عملا يتفق مع آمالهم ورغائبهم — سواء كان من ناحية الكرامة أو من حيث المرتب — خارجاً عن نطاق الوظائف الحكومية ... فالمشكلتان الاجتماعية والسياسية اللتان تنجمان عن هذه الحالة تنذران بخطر عظيم لا سيما فى المدن الكبيرة فى القطر المصرى . أضف الى هذا أن الوالد المصرى ، الذى يقضى عدداً من السنين منكراً على نفسه كل متاع فى الحياة ليحسن مستقبل ابنه بواسطة المدارس . فلا يلبث أن يجده عالة عليه ، حقيق بأن يرثى له ، حرى بأن يكون عبرة لآباء المستقبل »

وانتقل مستر مان بعد ذلك الى الكلام فى توسيع برنامج التعليم باضافة مواد

جديدة الى المواد الكثيرة التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية ، فصرح بأنه يرى أن ولاة الامور المصريين لم يعنوا بالبحث بدقة عما اذا كان التلامذة المصريون يسيغون تلك المواد الاضافية ، فترتب على ذلك أن زادت نفقات التعليم لتخريج فئة هى ، غصص فى الحلوق ، وحمول على الاكتاف بدلا من أن تكون عونا للبلاد وعضدا لها ،

التعليم الصناعى

وعندنا عدا المدارس الثانوية - التى يتجه التعليم فيها إلى تثقيف العقول تثقيفاً أدبياً وعلمياً - المدارس الصناعية التي قد يظن أنها تخرج شباناً صالحين لمزاولة الاعمال الحرة . أليس من أعجب العجب أنه حتى خريجىّ تلك المدارس يتطلعون إلى خدمة الحكومة كأنها الغاية القصوى التى تطمح اليها آمالهم ؟! فهم لا يختلفون فى هذا عن أترابهم خريجى المدارس الثانوية ، كلاهما لا يطمئن الى الاعتماد على نفسه فى الاعمال الحرة بل يظهر أنها تلقى الرعب فى فؤاده

ويقول المستر مان إن نتيجة ذلك هى انعدام الجو الصناعى فى مصر إذ ، أن الصانع الذى لا يستطيع أن يخرج عملا صناعياً يعود بربح تجارى مناسب لا يقبل على استخدامه مصنع يريد أن يبقى بعيداً عن محاكم الافلاس ، والمدارس الصناعية فى مصر لا تنشىء خريجيها وفق مطالب المصانع الحرة وحاجتها من السرعة والدقة فى العمل ، أضف الى هذا أن خريج المدرسة الصناعية فى مصر يزدرى نظام العمل تحت الاختبار مبدئياً - بعد خروجه من المدرسة حاملا الشهادة - حتى يعد نفسه للمنافسة فى الصنائع الحرة ، مع أن هناك صناعاً غير متعلمين ولكنهم قد اكتسبوا بواسطة الخبرة وحدها دراية فى عملهم تفوق دراية خريجى المدارس الصناعية . على أن ما هو أدهى وأمر هو أن المدارس الصناعية عندنا تدخل فى العطاءات التى تعلن عنها بعض مصالح الحكومة متقدمة فى المناقصات بأسعار أقل بكثير من الاسعار التى تقبل بها المصانع الحرة ؛ ثم تقوم بالعمل بنفقات أكثر بكثير من قيمة العطاء المقدم فى المناقصة !! فبينا هى ترمى إلى تدريب تلاميذها على الصناعات المطلوبة من جهة إذا بها من الجانب الآخر تلقنهم أسوأ مبادىء الاقتصاد حتى إذا قضوا مدة التعليم وتخرجوا منها لم يجدوا من يقبل خدمتهم سوى بعض

المصالح الحكومية . أما الصنائع الحرة فانهم يصبحون حرباً عليها بدلا من أن يكونوا عضداً لها

ثم ما قولك فى أن احصاء التلاميذ فى العام الماضى تبين منه أن هناك ٦١٢٦ طالباً فى المدارس الصناعية و ١٠٦٧ طالباً فى المدارس التجارية بينما أنه بالرغم من أن مصر بلد زراعى أولا وقبل كل شيء ، فليس فى مدارسها الزراعية المتوسطة سوى ٦١٦ طالباً ؟!

ليضع القارىء هنا ما شاء من علامات استفهام وتعجب . . .

مدارس المعلمين:

أما مدارس المعلمين عندنا بمختلف درجاتها وانواعها فمن رأى مستر مان أن « الغذاء العقلى الذى تقدمه لطلبتها لايسمن ولا يغنى من جوع » وإذن فلا عجب اذا كانت الدروس التى يلقيها خريجو تلك المدارس على الطلبة تقابل من هؤلاء بالضجر والملل بل بالكراهة . وماذا ينتظر من مدرس - أو حتى ناظر مدرسة - يتقاضى راتبا أقل من رواتب كثير من الخدم فى البيوتات الكبيرة !! أليس من أكبر دواعى انحطاط مستوى الطلبة عندنا أنهم يتلقون العلم على أيدى أمثال اولئك المدرسين الخاملين ؟ ويقول مستر مان فى وصفهم انهم إذ يتخطون دور الطفولة والدراسة الى دور الحياة العملية لايكلفون أنفسهم مشقة التفكير فى أعمالهم بل « يبقون فى انتظار تعليمات رؤسائهم لتأدية واجباتهم كما تنتظر أرض مصر شهر ابريل من كل سنة ليجود عليها النيل بمائه فيخصب تربتها ، وما ذلك إلا لأن التلاميذ عندنا « لايمرنون التمرين الكافى على الملاحظة والتأمل ؛ ولا يقومون بعمل الاختبارات بأنفسهم ليتدربوا على الابتكار مع أن هاتين المسألتين أهم بكثير من جلوسهم الساعات الطوال منصتين للدروس التى تلقى عليهم كأنهم خشب مسندة . إذ أنه لا شك أن هذه الطريقة - مهما تكن الدروس معدة بأقصى عناية - تربيهم على الخمول ، وتفقدهم حب البحث والتنقيب وتفهم أحوال العالم اكتفاء بما يصل اليهم على أيدى معلميهم أولا ثم على أيدى رؤسائهم فيما بعد »

وزارة المعارف

ويشير مسترمان فى تقريره الى انه كان يجب على وزارة المعارف أن تسير بنظام بيروقراطى فى أول مرحلة من مراحل تعميم التعليم ثم تتطور بعد ذلك الى نظام اللامركزية فيختص كل قسم منها بالاشراف على الفرع التابع له من مختلف أنواع التعليم العلمى والادبى والتجارى والزراعى والصناعى، أما أن يسير التعليم فى جميع انحاء القطر على وتيرة واحدة وطبقاً لبرنامج معلوم فانه يؤدى الى تخريج نوع واحد من المتعلمين، حال ان الامم لا ترتقى إلا بتنوع تعليم ابنائها وتخصص كل فريق منهم فى هذا الفرع أو ذاك. يقول مستر مان و أن التلميذ البدوى فى المدرسة الابتدائية فى الصحراء يتلقى نفس البرنامج من العلوم الذى يتلقاه زميله الطالب فى المدرسة الابتدائية الواقعة فى أشد الاحياء تفرنجا فى القاهرة والاسكندرية. لا فرق مطلقاً بين التعليم فى الريف وبينه فى المدن. ولا شبهة أن هذا أسوأ استعمال للتعليم بالطريقة الاوربية. ومن الواجب على مجالس المديريات أن يعنى كل منها بالاشراف على شؤون التعليم الابتدائى فى مديريته. وتبقى القاهرة والاسكندرية مركزى للارشاد والاشراف العام وللجامعات العليا يتخرج بها من يظهر عليه الاستعداد لمواصلة التعليم حتى مرحلته الأخيرة.

ولما كان العمل متبعا كما فى وزارة المعارف فأنها رأت تخفيفاً لوطأته ان توحد برامج التعليم الى حد انها جعلت برنامج تعليم البنات مطابقا تمام المطابقة لبرنامج تعليم البنين على ما فى هذه النظرية من خطأ ظاهر إذ أن البنات يجب أن يتعلمن الخياطة وما اليها من الاعمال المنزلية التى يتوقف على درايتهن بها وحذقهن لها صلاح البيت وهو اذا صلح صلحت الامة بأمرها

مسألة اللغة : وقد عنى المستر مان فى قسم كبير من تقريره بمسألة اللغة عناية خاصة فقال أن الطفل المصرى يسمع ويتكلم فى البيت والشارع بل وفى المدرسة ذاتها لغة غير التى يكتبها ويتعلم بها. والسبب فى هذا هو أن اللغة العامة ـ أو العامية ـ لا ضابط لها من قواعد نحو أو صرف فضلا عن أنها تختلف اختلافا بينا عن اللغة العربية الفصحى التى هى لغة الكتب والصحف والخطابة. فينشأ من ذلك أن يجد الطالب

نفسه مضطرا فوق دراسة اللغتين الانجليزية والفرنسية أو احداهما الى دراسة لغة أخرى هى اللغة الرسمية لبلاده

وفى الحق أن مسألة اللغة فى مصر — كما هى فى بلدان أخرى — أصبحت من أهم المعضلات التى تشغل اذهان المفكرين حيث أن الخلاف بين لغة التخاطب ولغة الكتابة يؤدى حتما الى اجهاد العقول بالتفكير فى وسائل التعبير يفهمها المتعلمون تعلما عاليا والاقل منهم درجة أو درجات حتى يستفيد كل قارىء الفائدة المرجوة من كد القرائح وثمرات العقول فى الموضوع ذاته لافى اللغة لاغير ، ولا مشاحة فى أن اضطرار الانسان للتخاطب بلغة غير التى يستعملها فى الكتابة يؤدى الى ضعفه — نسبيا — فى اللغتين ، وذلك بعكس ما اذا كانت هناك لغة واحدة للتخاطب والكتابة معا فيصبح الكاتب قادراً على التعبير فى أى موضوع بلغة يفهمها القارىء كما يفهمها المخاطب (بفتح الطاء) فتكون الافادة والاستفادة اعم وأسرع مما هى الآن حيث تختلف كل من اللغتين عن الاخرى اختلافا كبيرا الى حد انه يصعب الجمع بينهما فيجهد الكاتب والمتكلم نفسيهما فى أحيان كثيرة جهدا شاقا للتعبير عن معنى من المعانى قد يصرفهم عن أصل الفكرة أو يضعف تفكيرهما فيها فتتناقص الفائدة المرجوة من الكتابة أو الخطابة بقدر ما يصرف من الجهد فى الوصول الى تعبير عربى صحيح او عامى دارج لايصال الفائدة الى القارىء أو المستمع

ولا نكران أن الافكار فى مصر متجهة نحو تعميم استعمال اللغة العربية الفصحى فى التخاطب والتعامل والكتابة على السواء ، وهذا لو تم فانه ولا شك يجىء بنتائج حسنة ويحقق رغبة المصلحين ويساعد مساعدة جدية على سرعة انتشار الثقافة والحضارة؛ لكن دون ذلك التعميم مصاعب ومتاعب جمة . لذلك يرى مستر مان أن تؤلف لجنة خاصة يناط بها وضع قواعد للتقريب بين اللغتين جهد الطاقة لانه يكاد يكون من المستحيل تعميم اللغة العامية — وهى لغة التخاطب — إذ أن اللغة الفصحى تحمل بين طياتها ثروات طائلة يعتبر ضياعها خسارة فادحة ليس من السهل تعويضها

أما تدريس اللغات الأجنبية فى المدارس المصرية فقد لاحظ مستر مان ان المدرسين المصريين الذين يقومون بتدريس اللغة الانجليزية غير خبيرين بأصول النطق بها ،

كما لاحظ أن هناك افراطا كثيرا فى تدريس روايات شكسبير وهذه وان لم يكن ثمة أدنى شك فى نفاستها فان صعوبتها تزيد فى العناء الذى يقاسيه الطلبة ، وربما كان الافضل أن يترك درس امثال هذه المقطوعات العالية فى الادب للاستعداد الشخصى الذى يكون لدى هذا الطالب أو ذاك

خاتمة

وختم مستر مان تقريره بالاشارة إلى وفرة المواد التى تحتوى عليها برامج التعليم و يرى أن ذلك الافراط من شأنه أن يقوى الذاكرة على حساب الذكاء

فأملنا أن تسارع حكومة الشعب الحاضرة باصلاح نظم التعليم فتؤدى بذلك جل خدمة لمصر تساعدها على تحقيق استقلالها

المتهم البرىء
أو اللص الخفى

فى يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٧ بينما كان احمد.. يسير فى الشارع صباحا فى محاذاة أحدى البيوتات اذا نقض عليه اثنان من رجال العسس قابضا عليه بشدة قائلين (وقعت يامامون انت عذبتنا وهو ستنا اتناشر شهر واحنا بنجرى وراك وانت تعمل كل عمله واختها ! بس استنا!!)

بهت أحمد لهذه المفاجأة الغريبة ونظر اليهما بدهشة قائلا « ماذا تبغيان ؟» قال هذا وهما قد بدا يكبلانه بالحديد وكان قد ظن الامر مجرد شبهة لاتلبث ان تظهر من ورائها الحقيقة ولكنهما تماديا واستمرا يلبسانه الحديد بالقوة وهو يدافع ويجهد ويرعد ولا من مجيب وقد حضر لمساعدتهما رجل الشرطة وتم لهم ماأرادوا وبدأوا يجرونه الى القسم فلم يرىدا من مسايرتهم وملاطفتهم حتى يقف على سبب ذلك ولكنه كان يحاول عبثا اذ كان كلما سأل أحدهم لايجيبه الا بنظرة استهتار وسخرية قائلا « بقى انت مش عارف ! ؟» وأخيرا وصلوا الى مركز البوليس فأودعوه الحجز ريثما يبلغون الامر للمحقق وبعد ساعة ذاق فيها احمد مر العذاب لتلك المباغتة الغريبة وذلك الحال الذى لم يكن له به عهد من قبل حضر المحقق وبدأ يسأله ويحقق معه فى أربع حوادث سرقة فى المنزل الذى وجد أمامه صباح اليوم، وبعد ساعات قضاها المحقق مع احمد فى حوار لم ينل منه شيئا اذ كان جواب احمد فى جميعها استغرابا ودهشة ونفيا بشدة شأن من ليس له عهد بمثل هذا ومن لم يقترف مثل ذلك مطلقا - أقفل المحقق المحضر وورد احمد الى السجن ريثما يتم التحقيق .

فى المنزل المجاور لبيت احمد

فى إحدى غرفه جلس اثنان الى بعضهما القرفصاء وجرى بينهما الحوار الآتى : —

ـ لقد قبض عليه اليوم وسوف يحاكم ويحكم عليه بالسجن فيخلو لنا الجو بتلك الفاتنة حيث نوهمها بسعينا فى خلاصه حتى تتلهى عنه ونكون قد كسبنا المسألة بما وقع فى أيدينا من هذه النفائس القيمة ، وليس علينا إلا أن نغري بعض أصدقائنا لاداء شهادة قيمة ضده كى تتم المسألة على مايرام .

فرد عليه الآخر قائلا : ـ وما الذى تراه فى هذا الخاتم الغريب الذي لانستطيع بيعه لانه معروف ؟

ـ لا ، لاتخف ، ستنسى المسألة ونبيعه فى غفلة بأى ثمن ، فان الذى نربحه من ورائه فائدة .

فرد عليه الآخر فى فرح وسرور : لا ، لا . الرأى عندى أن نقدمه لها كهدية حتى اذا ماوقع فى يدها يكون من ضمن الادلة على ثبوت التهمة ضد زوجها ، هذا وبخاصة لو أفهمناها أنه من عند زوجها دليل على ارتياحه لزياراتنا لها

فأجابه قائلا : « برافو ياعم سرور !! والله عال !! »

احمد فى السجن

جلس احمد حزينا كئيباً لايدرى ماذا أصابه ومن أين وقعت هذه المصيبة وما الذى يعمله والمحقق لايريد أن يقبل منه إلا اعترافا ولو بالباطل . وأخذه الحديث الى التفكير فيمن يكون السبب في ذلك فدار بخلده أن يكون ذلك من طريق الصدفة فقط ، ولكنه جمع شارد فكره فتذكر أنه كانت له علاقة بشخصين جمعته بهما صدفة سيئة وانه وجد فى أخلاقهما شراسة وخسة خصوصا وانهما ظهرا بعد ذلك بمنتهى القحة والاستهتار ، وانهما كانا

يغبان به شراً فى زوجته فاتهمهما وقطع علاقته معهما وكان يعلم أنهما قد يأتيان السرقة !! فتيقن أن مصيبته ليست إلا من هذه الجهة . وزادت آلامه لعلمه أنهما سيرتكبان ضد زوجته ما كان يخشاه . ظلت هذه الهواجس وتلك الافكار تنتابه فى كل لحظة وحين وهو تارة يبكى وآنا يتظلم لمن ببابه و يستغيث ؛ ولكن أنى لحراس جهنم أن يصغوا لصوت الرحمة أو يلبوا نداء الانسانية ! ؟ لبث على تلك الحال خمسة عشر يوما وهو فى كل يوم يدعوه السجان لمقابلة المحقق حتى اذا ماشل بين يديه فاجأه المحقق بالاسئلة فيجيب عنها بالنفي . و يوجه التفاته الى بعض أشياء يريد أن يدلى بها فلا يأبه له ولا يلتفت لكلامه . وأخيراً أقفل التحقيق على بعض اجابات كان يرى المحقق أن فيها اعترافا ضمنيا وأرسلت الاوراق الى المحكمة لمحاكمة المتهم فى يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٧ أمام قاضى الاحالة تمهيداً لتقديمه لمحكمة الجنايات

فى منزل احمد

فى صباح اليوم السادس من القبض على أحمد طرق الباب على زوجته ، وكانت قد علمت بالامر من جهة المحل الذى كان يشتغل فيه . وهو قد كان يشغل وظيفة كاتب باحدى المحال التجارية الكبرى ، فسألت : من الطارق ؟ فرد عليها صوت قائلا أنا من قبل احمد افندى ، ففتحت الباب بتلهف ، إذ كانت تحب زوجها كثيراً شأن الوفية لزوجها ، فاذا ذلك الرجل الذى كانت تعلم سابقاً أن بينه وبين زوجها صداقة اذ لم يكن أحمد قد أخبرها بما كان بينهما بعد ذلك .

فبادرها التحية فردت عليه بحياء وحزن وقالت ماذا وراءك فقال ان احمد افندى فى خير وسلام وان مسألته سهلة ومنتظر الافراج عنه قريبا ولكنه أرسلنى لاسألك اذا كنت فى حاجة الى شىء أخبره فيرسله لك . فأجابت بعد أنة عميقة : لا أريد شيئاً إلا إطلاق سراحه فهو برىء كما يعلم الله .

فقال لها فى شيء من التحكك لاتحزنى فقريبا يكون ذلك ولكن على كل حال اذا كان لك طلب فانا على استعداد لتقديمه فنحن كما تعلمين أصدقاء وانى أقدم لك هذا الجنيه ريثما نرى ماذا يكون من أمره فترددت فى أخذه ولكنها لعلمها انه صديق زوجها خصوصا وقد فارقها زوجها آخر الشهر وقد حجز مرتبه تقبلته باخلاص وحسن نية شاكرة

الا أن المجرم الخبيث اتخذ من ذلك وسيلة لزيارة المنزل لمناسبة ولغير مناسبة وصار يتردد على المنزل كثيرا ويقابل فى كل مرة برفض كل اقتراحاته من تقديم نقود بدعوى انها مرسلة من زوجها واخرى بارسال هدايا الى غير ذلك مما أكد عندها سوء نية وخبث فعاله حتى انه فى ذات مرة وكانت دائما تخاطبه من وراء حجاب اخبرها انه سيشترى لها خاتما ذكر لها أوصافه وانه سيقدمه لها سواء رضيته أم قبلته لانه يعمل كل ذلك لارضاء ضميره ووفاء بما كان يقوم به زوجها نحوه من خدمات

بين المتهم وزوجته

الى أن مضى على ذلك الحال أكثر من شهرين ونصف ذاق المسكين فيها فى سجنه ظلمة القبر وعذاب الجحيم صنوفا وألوانا ، ورأت فيها المسكينة زوجته الذل والهوان على اقبح ما يكون وكان قد حوكم أمام محكمة الاحالة وحكمت عليه رغم صيحاته المتكررة ونداءاته الموجعة بتحويله الى محـــكمة الجنايات لدور فبراير .

وقبيل بدء المحاكمة بأيام وبعد رجاءات متكررة ولأى وعناء قبل رجاء الزوجة فى زيارة زوجها وفعلا قابلت الزوجة زجلها ومالك لبها والاسير البرىء المعذب وناهيك بما وقع من بكاء ونحيب وتوجع وتمنى الخلاص من هذه التهمة ثم بدأت تقص عليه حكاية ذلك النذل السافل (خاطر) الذى كان يتردد عليها بالزيارة وما تقدم به اليها وغير ذلك من الحكايات كان فى أثنائها المسكين يكاد

يتميز من الغيظ الى أن أخبرته عن مسألة هديته لها الأخيرة وهي الخاتم الذي وعدها به رغما عنها فسألها زوجها عن وصف ذلك الخاتم فذكرت له الاوصاف التى قالها لها ذلك المجرم الاثيم ، فعض يده أسفا وقال : يسرق المجرم ويسجنني فى سرقته ! انه الخاتم .. إسمعي انا المخطىء ليس بيني وبين هذا المجرم الا كل عداء . لقد تحككك فى أول الامر ولما عرفت انه سافل وأنه يقصدنى وإياك بسوء طردته شر طردة وما أردت أن أخبرك بذلك لانى لم أكن اعلم بشىء من هذا ، وان المسألة انى متهم بأربع حوادث سرقة وان هذا الخاتم من ضمنها وحيث أنه عمل ذلك فاسمعي ما سأقوله جيدا واعملى به . عقب خروجك اذهبي الى مركز البوليس وقابلي المأمور بنفسه واسردي عليه المسألة بحذافيرها واعملى بما يأمرك به من الاوامر لعلهم يقبضون عليه متلبسا بجريمته ويظهر العدل و ينال الاثيم جزاءه وافيا . فاطمأنت المسكينة لذلك وخرجت من عنده قاصدة ادارة الامن حيث المأمور فقابلته وقصت عليه المسألة بتمامها وان زوجها يعانى ألم السجن لغير ماذنب أو إثم اشباعا لرغبة الفسقة المجرمين الذين لايرعون فى الله إلا ولا ذمة ، فهم فى ضلالهم يعمهون ، وما كاد المأمور يسمع بذلك وبخاصة عندما ذكرت له ما وعدها به من أمر الخاتم حتى اهتم بالامر واخبرها أنه سيرسل بعضا من رجاله يختفون فى المنزل و ينظرون مايجرى واذا جاء ذلك الشخص تجعله يتقدم اليها بما يريد فامتثلت لذلك وما عتم أن حضر لديها اثنان من رجال الشرطة مختفين فادخلتهما فى حجرة مجاورة وكان ذلك الملعون قد زارها بعد زيارتها لزوجها فقابلته بنوع من البشر تخدع اذ لم يعلم انها قابلت زوجها وعرفت كل شىء ، ووعدها بأنه أمر الصائغ أن يصنع لها الخاتم على هذا الشكل خاصة وأن بينه و بين الصائغ ميعادا اليوم سيأخذه منه ويحضره لها : فأجابته ببعض البشاشة (لابأس) فاطمأن الى ذلك وذهب وقد كان فى أثره بعض الرجال السريين حيث علموا مكمن الاشياء

المسروقة التى لم تكن يبحث حتى الآن. فحمل الخاتم وطار على جناح السرعة ليقدمه اليها ودخل المنزل وأراد أن يداعبها مقدما (عربونا) للخاتم ولكنها أبت الا أن يسلمها الخاتم أولا ، وبينما هو يسلمه لها اذ انقض عليه المختفيان فقبضا عليه متلبسا بجريمته وكبل بالاغلال وسيق الى التحقيق ، وكان فى اثناء ذلك قد ذهب بعض رجال الشرطة لمهاجمة منزله والتفتيش فيه وفعلا عثروا على معظم السرقات وفتح له محضر التحقيق.

أمام قاضى الجنايات

عقدت جلسة الجنايات لدور فبراير وجاء دور قضية احمد فنودى فى قفص الاتهام و بدىء فى استجوابه ومناقشته ، وبينما الرئيس يسأله اذ حضر بعض رجال الأمن يحمل بريدا مستعجلا للرئيس فلم ير الرئيس بدا من فضه وقراءته مادام جوابا اداريا وفعلا فضه فوجد به ما يأتى بعد الديباجة : —

عثر اليوم رجال الادارة والأمن على المسروقات فى بيت رجل يدعى خاطر وقد قبض عليه اثناء تلبسه بجريمة انتهاك حرمة منزل احمد . . . . . الذي يحاكم اليوم المحكمة رياستكم ويقدم الى زوجته خاتما من المسروقات هدية والآن بما أنه رهن المحاكمة حرصا على مصلحة التحقيق نرجو ايقاف محاكمة المتهم احمد . . . حتى يتم التحقيق مع هؤلاء.

فاقتنع الرئيس بذلك وأمر بارجاع المتهم الى السجن ، وبينما هو يضع هذه الافادة بدوسيه القضية اذ وقع نظره على اسم خاطر . . . . فجأة فقرأ الورقة التى فيها هذا الاسم فعلم انها ورقة مقدمة الى النيابة منه ضد المتهم احمد بالقبض عليه لسرقته هذه السرقات جميعها فتبين له أن لابد فى الأمر من سر . ورد الاوراق لاجراء التحقيق.

البراءة

واجرى التحقيق مع المتهم الثانى فاعترف بكل ماجرى تحت تأثير العدل.

والقسطاس المستقيم . وكما اعترف عن شركائه فى الجريمة وشهدت شهود الاثبات بصحة ذلك واعترف جميع المتهمين بجرائمهم ، ولما سئلوا عن احمد قرروا جميعا بصوت واحد عدم اتصاله بهم مطلقا وان ليس له يد فى شيء ، وان المسألة لم تكن سوى أن خاطر رأى ذات يوم زوجته الجميلة تصاحبه لذلك ولما لم ينل منها أو منه مأربا قدم البلاغ المذكور تخليصا لنفسه و بعدا عن الشبهة وانتهازا لفرصة طالما تمناها . ولكن ابى الله الا أن ينصر الحق وتعلو كلمته ولو كره المجرمون . واحيلت الاوراق الى محكمة الجنايات جميعها وحوكموا وخلت المحكمة للمداولة وبعد برهة خرج الرئيس لنطق الحكم وهو يقضى بحبس كل من المتهمين عدا خاطر واحمد بالسجن لمدد تتراوح بين سنة او سنتين . وعلى خاطر بالسجن سبع سنوات . وعلى احمد بالبراءة مع حفظ الحق له ضد خاطر بالتعويض المدنى الى اربعة الاف جنيه

فهتف الناس جميعا ليحيا العدل وخرج احمد مرفوع الرأس موفور الكرامة ونال المجرمون عقابهم فكان جزاء وفاقا .

محمد عبد الجواد السكرى

جبر ضومط

مات الاستاذ ضومط ، مات رجل ترقى حياته على السبعين ، بعد أن قضى مايزيد على نصف قرن منها يبحث وينقب ويعلم ويهذب ويكتب ويؤلف . مات فى بيروت صباح الاحد فى ١٩ يناير ، فطير منعاه الى جميع الاقطار فريع له ألوف تلاميذه وأصدقائه وعارفى فضله ، وانقطعت بذلك حلقة أخرى من حلقات رجالنا الكبار الذين مشوا فى طليعة النهضة العلمية الحديثة يغذونها بفكرهم وخلقهم وصحتهم ، ولاينون فى الجهاد .

ولد الاستاذ ضومط فى برج صافيتا بجوار طرابلس الشام سنة ١٨٥٨ تلقى مبادىء القراءة والكتابة والحساب فى مدرستها وكان من الذين درسوه فيها سنة ١٨٦٩ المرحوم الدكتور صروف . ثم حمله شغفه بالعلم على اقناع والديه بارساله الى مدرسة المرسلين الاميركيين فى قرية عبيه بلبنان حيث استعد لدخول الكلية السورية الانجيلية فى بيروت (الجامعة الاميركية الآن) فذهب اليها سنة ١٨٧٠ ولبث سنتين ثم انتقل الى بيروت فى ١ اكتوبر سنة ١٨٧٢ وظل فيها حتى تخرج سنة ١٨٧٦ ؛ وعين بعد احرازه لشهادتها مدرساً للفلسفة الطبيعية واللغة العربية بمدرسة كفتين ؛ ورافق حملة غوردون باشا الى السودان سنة ١٨٨٤ ولما عاد دعته الجامعة الاميركية ليدرس اللغة العربية وآدابها فيها فشغل منصبه هذا فيها الى بضع سنوات خلت حتى قضى عليه ضعف الصحة باعتزال التدريس ، ولكنه لم يعتزل الدرس والبحث . فقد كان رحمه الله طالب علم الى آخر رمق من حياته .

وتزوج السيدة هدى صليبي شقيقة الدكتور نجيب صليبي الطائر الصيت فى جزائر الفيلبين فكانت له خير معوان على القيام بأعماله العقلية المختلفة ثم رزق منها بثلاثة صبيان: مخايل واميل ونجيب ، وثلاث بنات هيلانة (مدام

سكر) ومنيرة (مدام شحاده) ولولو ؛ كل منهم مثال يحتذي فى حسن السيرة والاكباب على العمل وممارسة الفضائل التى تحلى بها والدهم

***

كان الاستاذ ضومط معلماً فطر ليكون كذلك يذكر له كل الذين درسوا عليه ذلك الخلق العالى الفعال بلينه ، المقوم باستقامته ، المرشد باتصابه على العمل وتمسكه بالفضيلة ، المهذب بما يلاومه من عطف الاب وصراحة الصديق. ولو لم يكن له إلا هذا الاثر فى نفوس تلاميذه وأصدقائه لكان من الخالدين. فقد كان معروفا عندهم طوال حياته « بالمعلم جبر » . وارجح أن لقب « المعلم » سيلازم اسمه أينما ذكر

ولكنه كان علاوة على ذلك باحثاً يرود مجاهل المباحث العويصة التى تصدى لها فى تاريخ اللغة العربية ونشأتها وتحولها بنظر ثاقب وحس دقيق ومعرفة واسعة النطاق . ومن أول الكتب التى وضعها فى هذا الباب من البحث كتاب « خواطر فى اللغة » احتسبه المرحوم الدكتور صروف « مبكراً عندنا وممهداً لعمل أعده من أنفع الاعمال »

وكان فتى النفس والعقل ، لايقعده مر السنين عليه عن أن يتصل بروح عصره المتجدد فيجاريها بل ويسبقها في ادخال نزعات التعليم الجديدة الى كتبه النحوية والصرفية أواللغوية . لانه أدرك بالمرانة أن علم النحو وغيره من علوم اللغة اذا اقتصر فيه على مجرد الحفظ من غير اشراف على فهم أو تمييز كان مصيبة أية مصيبة ؛ فخرج فى مؤلفاته والدروس التى كان يلقيها على الاساليب القديمة ووضعها على نمط يتفق وعقل التلميذ إذ جعل الاعتماد على قوى الادراك والتمييز والقياس والحكم . وكأنه بذلك أضاف الى علوم اللغة نزعة فلسفية سيكولوجية جعلت لها بين الطلبة طلاوة جديدة ومقاما رفيعا . ومن مؤلفاته المتداولة « الخواطر الغراب فى النحو والاعراب » و « المعانى الحسان فى المعا»

والبيان » و « فلسفة البلاغة » . وقد جمعت مؤخرا مقالاته العلمية والفلسفية في كتاب « فلسفة اللغة العربية وارتقاؤها » وطبعت بمطبعة المقتطف

وقد قدم الاستاذ ضومط مصر في شتاء سنة ١٩٢٢ مع قرينته الفاضلة فاحتفى به تلاميذه العديدون المقيمون فيها ، وقبيل مغادرته لها أقيمت له حفلة تكريمية بدعوة من الآنسة مي في منزل والديها حضرها طائفة كبيرة من الادباء والعلماء يتقدمهم احمد لطفي السيد بك واحمد زكي باشا والسيد رشيد رضا والدكتور منصور فهمي وخليل بك مطران والمرحوم الدكتور صروف والمرحوم نور الدين بك مصطفى وغيرهم من رجال العلم والصحافة والادب

وسنة ١٩٢٨ احتفل بيوبيله الذهبي في جامعة بيروت الاميركية في مهرجان فخم تقديرا لعلمه وفضله . وقد لقيه كاتب هذه السطور في الصيف الماضي واجتمع به طويلا فاذا هو نشيط كل النشاط ، يقبل على عمله اليومي من درس وتنقيب وتأليف بهمة تخجل الشبان ، وتضع أمامهم مثالا عاليا لكبر الهمة وحب العلم والعمل . وكنا نقدر له طول الحياة بعد مارأيناه في صحته من أمائر التحسن ، ولكن قضى القضاء ، لامرد لما قضى . تغمده الله برضوانه وألهم آله الصبر والعزاء وجعل سيرته وما تنطوي عليه من فضائل نبراسا يهتدي به أبناء الشرق

فؤاد صروف



البهائية

وتاريخ قرة العين

عاد الناقد المعاند المجادل بالباطل يمزق أقواله بالهزء والمضحكات كقوله « ياخالتى يا أم اسماعيل » وكقوله « الحقونى يا أهل البلد » وغير ذلك من الردح ، تارة يتبرأمن الاسلام وأهله وتارة يقول « صدق الله العظيم » وطورا يدعى أنكار الوحى فما عرفنا له مذهبا نخاطبه به . يتلون تلون الحرباء كل ذلك فى سبيل انكار آيات الله مع أننا لم ندعه للايمان بل كنا فى موقف اقامة الحجة ومعرض اظهار الدليل « فمن شاء فليعرض عن هذا النصح ومن شاء فليتخذ الى ربه سبيلا » .

حقا إن شخصا مثله لايبالى ان ينسب السرقة الى دينه لحقيق أن يدعى على دين غيره بالسرقة ويفترض ما تستحسن أهواؤه أى افتراض و يملأ فاه بفحش القول وتجرى من بين شدقيه الادعاآت الباطلة وينفث من صدره سموم الافترا آت ولايزداد كلما سمع الآيات الاعنادا واصرارا والحادا « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلانقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا » . وليس لنا أن نجادل أمثال هؤلاء لاننا عرفنا ان مقصودهم لم يكن الاستفهام عن وجه الحقيقة بل الاصرار على العناد . وكنا ظننا أن حضرة صاحب العصور يفى بوعده فى قفل باب المناقشة ويضن بمجلته ان تسطر للناقد هذا الهذيان والطعن فى الدين البهائى الحنيف ولكنا وجدناه قد افسح له المجال بالطعن كما شاء وصرح له ان يتعمد تحريف آيات الله كزيادة بعض كلماته الممقوتة فى وسط آياته الالهية بقصد التشوية والمسخ بعد أن انهزم فى ميدان المباراة

وما كنا لنعنى بالرد على الناقد لولا أنه جثا على ركبتيه أمامنا متضرعا يسألنى ان اسرد له سيرة حضرة الطاهرة قرة العين التى كانت آية عصرها . فتذكرت عند ذلك قوله تعالى « وترى كل امة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها » وإذ ذاك لايسعنى الا اجابة تضرعاته وتوسلاته بذكر سيرة الطاهرة التى انجذب العالم من حلاوة بيانها والتى قامت فى نهاية الشجاعة والبسالة على نشر دين الله فى تلك الانحاء المظلمة وكشفت القناع منادية بمساواة المرأة للرجال فى كل الامور الى أن فازت أخيرا بالشهادة العظمى بيد الظالمين المجرمين

فاستمع لتاريخ الطاهرة الزكية التى فاقت بنى جنسها فى كل العصور والتى بعثها رب البرية لتقدم المرأة وانقاذها من بين براثن الرجال المستبدين ، واثبتت للعالم وأهله أن الله قادر على أن يبعث من النساء من هن أعلا كعبا من الرجال وأقدر منهم علما وأدبا وفضلا واطلاعا

كانت قرة العين بديعة زمانها ، فريدة بين نساء أوانها ، واسمها الاصلى « زرين تاج » أى التاج الذهبي لان شعرها كان ذهبيا ، وكنيتها أم سلمى ، ولدت سنة ١٢٣٠ هجرية واهتم والدها الملا صالح الذى كان من كبار العلماء بامر درسها للعلوم فنجحت نجاحا باهرا وبدت عليها مخائل الذكاء والفطنة والعقل الفائق والفهم النادر وكانت تهتم حسب ارشاد عمها الملا على بمطالعة كتب الطائفة الشيخية حتى دب فيها الولوع بتلك الطريقة الجيدة وبدأت تقدس الشيخ الاحسائى والسيد الرشتى خليفته وتعتبرهما أعلم علماء العصر وأعلام تقوى وبصارة ثم شرعت عقيب ذلك فى مراسلة السيد الرشتى فى الاستفهام منه عن بعض الغوامض ، فلم يكد يقع بصر السيد على رسالتها حتى قال أنها خليقة بمعالى المقامات وجعل يخاطبها فى جميع كتاباته « بقرة العين » وبعد وفاة السيد ازمعت البقاء بكربلاء لما كانت تعلم يقينا من كتابته وبشارته

بأن الموعود فى الملة الاسلامية على وشك الظهور . وانتظرت هناك متوقعة ارتفاع النداء ، وجلست فى مقام السيد تلقى الدروس على الطلاب من وراء ستار نصبت لهذه الغاية ، فكان الطلاب والمستمعون فى أشد الاعجاب بحسن تعبيرها وفصاحة بيانها وقوة برهانها . وانقطعت للعبادة والتبتل . وهجرت تناول المطبوخات واجتزأت ببسائط الاغذية تقضى الليالى فى المناجاة والصلاة منتظرة فى كل الاوقات ظهور وبروز جمال الموعود

ولما كان أصحاب السيد قد انتشروا في البقاع والأصقاع للبحث عن الموعود حسب وصيته وبشارته لهم ، خاطبت السيدة أحدهم « الملا حسين بشروئى » مستفسرة منه عن نتيجة أبحاثه قائلة : (إذا وفقت للقاء طلعة الموعود فلا تحرمونى من موافاتى بذلك النبأ ولا تضنوا على بالسعادة العظمى) فصادف وصول كتابها بعد اهتداء السيد لحضرة الموعود ؛ وقرب عهده بالايمان ؛ فقدمه للحضور المبارك . وعند اطلاع الحضرة على مطلبها أجابها فوراً وأثبت اسمها فى سطح حروف الحى وكتب توقيعاً مباركاً بذلك . وبعد ذلك شرعت تبلغ الناس علناً بهذا الظهور الكريم؛ وكان زوجها ، امام الجمعة ، يعارضها فى ذلك ويقول لها (انك لفضلك وعلمك لو ادعيت هذا الامر لنفسك لصدقناك فلماذا صدقت أنت دعوة ذلك الشاب التاجر ؟) فلما تيقنت من زوجها الجفاء والاصرار على العناد انفصلت منه رغم إرادته اتباعاً لما عمل به الرسول صلى الله عليه وسلم من تطليق النسوة المؤمنات من أزواجهن الكفار . وقامت الحكومة أيضاً بالتعرض لتلك السيدة وأوفدت اليها من يستطلع خبرها لظنهم بأنها تدعو الناس إلى نفسها فلما سألوها قالت : (ليس لى من دعوة لنفسي ولا أمر ، بل إننى مطمئنة بأن العلم الحى قد ظهر ، وكل من يرغب من اكابر العلماء بمناظرتى في هذا الشأن فليتفضل) فأقرتها الحكومة على ذلك إلا أن العلماء لم يجرأوا على مباحثتها وماطلوا الحكومة وأخذوا

فى الطعن عليها وتكفيرها وجردوا عليها سيوف الغل والبغى . ولكن ذلك لم يمنعها من تبليغ امر الله علنا ، ودعوة الناس جميعاً إلى مأدبة الأمر الجديد . ونهضت من كربلا. إلى بغداد وفيها حضرت نادياً حافلا بأفاضل العلماء وبينهم الوالى والمفتى ؛ وقامت على تبليغ الجميع بما تحير منه الحاضرون. وأخيراً صدر لها الامر بالتحول إلى منزل المفتى السيد محمود الالوسى ومكثت عنده فى منزله شهرين وقد كتب عنها هذا المفتى فى تفسيره (روح المعانى) مدحاً فائقاً ونفى عنها ما اتهمها به الاعداء من الكذب والافتراء والزور والبهتان وشهد بطهارتها وصيانتها وعلمها وفضلها حيث يقول : (وقيل أنها كانت تقول برفع التكاليف كلها وأنا لم أحس بشيء من ذلك مع أنها بقيت فى بيتى نحو شهرين ، وكم من بحث جرى بينى وبينها رفعت فيه حجاب التقية فرأيت من الفضل ما لم أره فى كثير من الرجال ، وهى ذات عقل وأدب ، وفريدة حياء وصيانة ، وقد ذكرنا من المباحثات فى غير هذا المقام ما إذا وقفت عليه تبين لك أن ليس فى فضلها كلام)

وكان من ملازمى ركابها فى حلها وترحالها كثير من العلماء الأجلاء الذين ذكرت أسماؤهم فى الكتب وهم في كل آن يرتشفون من أنهار علمها وفضلها وكانت لاطمئنانها من دياناتهم وذمتهم وعفتهم ترفع الحجاب أمامهم ولا ترفعه أمام الاغراب ، فقامت عليها وعلى العلماء الملازمين لركابها قائمة علماء الرسوم ، وصخبوا وقالوا كيف يجوز لمخدرة أن ترفع الحجاب وتخاطب العلماء وتباحث المجتهدين . وقام الجدل بينهم وبين أتباعها والملازمين لحضرتها ليل نهار فكانوا يجيبون العلماء بأن الوجه والكفين على مقتضى أحكام الشريعة لم يكونا في أى وقت عورة حتى فى نظر الشريعة الاسلامية ، ولكن ذلك الاستدلال لم يغنهم عن الجدال والخصام . حتى بعض الاتباع كانوا يرون فى كشف النقاب مخالفة للشرع الأنور ، واستفهموا من حضرة الباب وجاءه

الجواب الثانى الذى تلى على جمع من الأحباء فى الكاظمية ومن ضمنه فى شأن قرة العين. (واما ما سألت عنه المرأة التى زكت نفسها فاعلم بأنها امرأة صديقة عالمة عاملة طاهرة، ولاترد الطاهرة فى حكمها؛ فانها أدرى بمواقع الامر من غيرها) وكان ذلك الجواب مسكتاً للمتزلزلين، ومرشداً للثابتين الراسخين الذين اعترفوا جميعاً بطهارة الطاهرة ونزاهتها. وانتشر صيتها فى جميع العراق وأصبحت حديث الناس من كل وضيع وشريف. ورفع نجيب باشا والى بغداد الامر إلى القسطنطينية شرح فيه أحوالها حتى جاء الامر من هناك بجلاء الطاهرة من بغداد إلى ايران. واعتزمت مفارقة البلاد ورافقها في رحيلها ما ينوف عن ثلاثين نفساً من تلاميذها وأصحابها مابين عربي وعجمى. ولما وصلت الطاهرة فى طريقها الى قرية (كرند) هب رؤساء القرية لاستقبالهم بالحفاوة والاكرام وأضافوهم بكل بهجة وترحاب واحترام مدة ثلاثة أيام، وفي أثنائها قامت الطاهرة بتبليغ الاهالى علانية الى الاقبال على دعوة الباب. وورد عليها رؤساء العشائر وتحت إمرتهم نحواً من اثنى عشر ألف فارس توسلوا اليها جميعهم أن يكونوا فى ركابها فشكرتهم الطاهرة ودعت لهم وودعتهم واتجهت نحو كرمانشاه وفيها أمرت بالصلاة العامة لعموم الاحباء فأقبل سواد عظيم واحتشدوا جميعاً فى الصلاة، وفى وسط ذلك الجمع أعلن تلاميذها للناس جميعاً علنا ظهور حضرة الباب. وكانت سيدات الامراء وعقيلات أولاد الملوك يزرن الطاهرة، وكذلك السيدة حرم الامير حاكم كرمانشاه، وأتى الامير بنفسه الى زيارتها، وبعد ان سمع من الآيات والبينات آمن مع جميع أفراد أسرته فأخذت حركة الامر هناك تزداد، وامتد بساط التبليغ، وأخذت الكلمة تعلو يوماً فيوما. حتى خشى بأس الطاهرة علماء تلك البلدة فاجتمعوا عند رئيسهم، على أكبر، وطلبوا منه مناظرة تهاليين لحق من الباطل، لكن هذا الرئيس خشى عاقبة الامر، فرفع تقريراً الى الحاكم يطلب فيه ابعاد الطاهرة، فاجتمع

الحاكم معها و استقر الرأي على مناظرة المجتهد المذكور في اجتماع يعمل خصيصا و اذ لم يأت بفائدة يعدل عنه الى المباهلة . فلما فهم المجتهد المذكور قرار الوالي استشاط غيظا وتمارض و طلب الامهال حتى يشفى . وفي أثناء ذلك أرسل الى والدها الملا صالح و الى عمها خطابين بالغ فيهما في موضوع قرة العين وطلب منهما الحضور لاخذها ، فارسلا اليها بعض ذوي قرابتها للعودة الى قزوين موطنها ، و لما أطلعت الطاهرة على مكر المجتهد رأت اجابة طلب ذويها ونزحت عن البلدة الى همدان وفي أثناء الطريق عرجت على (صحنة) و مكثت فيها ثلاثة أيام تدعو الناس وأعيان البلد الى ظهور الباب . و أبلغت أمر مولاها علنا و خفت الطاهرة الى الكلفة الى منزل «بهمن مرزا» ، وفاوضت نساء الامير والمغتهن الرسالة فاجاب لها اثنتان : احداهما (نواب حاجية هانم) والدة محمد حسين خان حسام الملك، الاخرى (حاجية هانم) حرم ناصر الملك الاكبر، وتشرفت هذه في بغداد بحضرة بهاء الله وانجذبت انجذابا أفضى بها الى أن صارت تنظم القريض في وصف حضرته . وكان لبلاغة شعرها التأثير الكلي لنكات عليها وفضلها . و لما رأى الامير (خانلر ميرزا) ماقامت به الطاهرة من جلائل الاعمال عقد مجلساً من العلماء لمناظرتها ، و لما تم عقد المجلس أخذت الطاهرة تذكر لهم من وراء الحجاب البيانات و أفاضت ببلاغة البيان وتركتهم يعترفون بفضلها و علمها وعظمتها ، و أقروا بجلالتها وفخامتها و امتدحوا علمها وعرفانها وأدبها . ودعت الطاهرة في تلك البلدة رؤساء عشاير بني اسرائيل ودعتهم الى الامر، و سألوها بعض أسئلة فكانت تجيبهم بالآيات من التوراة بما أدهشهم وحير البابهم . وكتبت أيضا رسالة خاطبت فيها عميد علماء تلك المدينة و اثبتت فيها حلول مواعيد (الموعود المنتظر) برمتها، وعززت ذلك بالحجة و الدليل، ولما فتح المجتهد الرسالة وقرأ مطلعها ووجدانها دعوة الى الايمان بالامر الجديد استشاط غضبا واحتد وأخذ يلعن و يسب باشنع الالفاظ، فاجابه اذ ذاك الرسول بقوله (ليس من شأن أهل العلم و العرفان مقابلة الدليل والبرهان

باستعمال لسان الطعن والقدح) قام المجتهد اذ ذاك بضربه .فهجم عليه العلماء الحاضرون واوسعوه ضربا حتى أشرف على الهلاك ،ثم سجنوه والقوه خارج المنزل ، وقام البعض فاحتملوا جسد الرسول الى منزل الطاهرة حيث اخذ الاحباء يعالجونه ، وكانت تقول للرسول (طوبى لك وصلى الله عليك بما قدمت نفسك فداء لاعلاء كلمة ربك الاعلى)

ولما اعتزمت قرة العين الرجوع الى قزوين موطنها بناء على ملتمس أهلها ، أمرت فريقا من الاصحاب بالعودة الى العراق العربى بعد ان زودتهم بالنصائح ومضت مع باقى أصحابها الى قزوين. وبعد وصولها انقضت ايامها الاولى فى الباحثة والمناقشة مع والدها وعمها الحاج ملاتقى،فما كان من والدها الا أن لزم الصمت وأما عمها فزاد فى اللجاج والعناد وتفوه أمامها بهذه العبارات وشرع فى السب واللعن والطعن، فقالت له والويل لك كأنى أرى فمك يقطر من فمك النجس ، وتقدم الاقرباء الى الطاهرة بقبول ما نصحهم فى العودة الى منزل زوجها ،ولكن ماسلف من هذا القرين من معارضتها ومقاومته لها فى اعتناق امر الباب منعها من قبول هذا التكليف ، وكان جوابها، لم يكن الخبيث ليقع كفؤا للطيب قط ، فقطع هذا الجواب الامل فى الرجاء بعودتها وابت روحها العالية ان تقيم صاغرة كسائر النساء فى منزل قرينها المستبد المنتقد لجميع اقوالها وأعمالها وسلوكها : فرفضته الرفض البات ولم تقبل مطلقا ان تجيب الطلب ، فجعل عمها الملا تقى يرتقى المنابر بعد كل صلاة وينهال بالسب واللعن فى حق الطائفة الشيخية والبابية . ولما جاوز هذا الشيخ الحدود فى الطعن صمم البعض على قتله ، وفى غضون ذلك أمرت الطاهرة أصحابها بالنزوح عن قزوين ولم يبق معها منهم سوى شخصين وكان يوجد شاب يدعى ميرزا صالح مشبو ربحبه للشيخ الاحسائى والسيد الرشتى ولما رأى الملا تقى يلعن الشيخية عقب كل صلاة صمم على قتله خصوصا بعد ماسمع عن فساد أخلاقه وأخذه الرشا وحبه

للدنيا وعبادته للدرهم والدينار . وأقدم على هذا العمل وبدون استشارة أحد ، فانتهز فرصة مرور الحاج تقي الى المسجد صباحا وهجم عليه وضربه بهراوة محددة الرأس فاصاب رأسه ووجهه وبطنه ولم يزل يضربه حتى اعتقد انه مات فتركه وركن الى الفرار . ولكن الحاج مكث ثلاثة أيام بعدها الى أن توفي وأوصى ان لا يعتدى على أحد في قضية قتله لانه عفا عن القاتل ورغما عن هذه الوصية قام ابنه ملا محمد (زوج الطاهرة) وشق جيوبه وأسرع الى دار الحكومة مستغيثا بالبابية ، ويبكي وينتحب حتى أصبحت حياة الطاهرة ومن معها في خطر

واتهموا في قتله ميرزا هادي القرهادي وصمموا على قتله . فلما رأى القاتل ان الابرياء يتهمون تصدى امام الحكومة واعترف بالقتل وقال (إذن لا داعي لي تعذيب الابرياء) وعندما قيل له (لماذا لم ترحم شبابك ولا شيخوخته وقتلت شيخ العلماء) أجاب بقوله (انه لم يكن عالما بل كان لصا سارقا لانه سرق من بستان أبي حنيفة بضعا من حبات عنبه وكان بهذه الحيلة يفترى على المساكين من الناس ويعتدي عليهم ويجرح قلوب الخواص ويحط من قدرهم) ثم شرح مقصوده من هذه السرقة بقوله (أن العلوم التي كان يفخر بها ملا تقي كالفقه والاصول هي من ثمار بستان أبي حنيفة فالاشجار غرس يده والبستان صنعه وتأسيسه ، ومهما اجتهد العلماء الذين من هذا القبيل لم يمكنهم أن يحصلوا الا على قليل من جانب عنب هذا البستان ، ومن كان من المعلومات بهذه المنزلة والقدر لا يبلغ بمعارفه تلك المرتبة الرفيعة التي هي زعامة العلماء . ولا يؤهله لادعاء العظمة والكبرياء ، ولا يجعله بحيث يسمح له الناس ببث تلك المفاسد والشرور . وأما العالم الحقيقي فهو من استقى الناس من فيضان نهر علمه وعوارفه واقتبسوا من نبراس فضائله ومعارفه وخدم مصالح النوع الانساني بحق وفتح في أوجه العالم أبواب الرحمة ونجى

الناس من المشاكل الدينية الجة واراحهم من محاذير الخلاف والخصام) فاندهش الحاكم وحاشيته من هذا البيان وهالتهم جرأته وبسالته. ولكن ساقوه الى السجن وانتهت هذه الوقعة بقتل خمسة أشخاص وهم ميرزا صالح وملا ابراهيم المملاتى والشيخ صالح الكريمي وشخصين آخرين بالرغم من وصية الملاتي بالعفو عن القاتل. وسعى ابنه امام الجمعة، لان يتوصل الى اعدام الطاهرة ليأخذ منها بثأره القديم. وكانت الطاهرة في أثناء هذه الحوادث مقيمة في سراى الحاكم سجينة تحت خفارة موظفي الديوان وحراستهم، فلما يئست من الخلاص كتبت تفاصيل الوقائع وبعثت بها الى حضرة بهاءالله في طهران الذى كان إذ ذاك الشخص الذى يشار اليه بالبنان في جميع الشئون والاحوال، فلما قرأ الكتاب أمر ميرزا هادى الفرهادى بالشخوص الى قزوين لانقاذ الطاهرة. فخف ميرزا هادى الى قزوين وطرق جميع الابواب وبعد اللتيا والتى تمكن من اخلاء سبيل الطاهرة وأخرجها ليلا الى طهران برفقة خادم يدعى قلي. وبوصولها إلى طهران تلقاها حضرة بهاءالله ومضى بها الى منزله وعندما قابلته لاول مرة شعرت باحترام عظيم نحوه. ومن العجيب أنها رغما من طلاقة لسانها وبلاغة بيانها واقتناصها عقول علماء الزمان كانت تجلس في حضور حضرة بهاء الله في صمت واطراق واحتشام كما يجلس التلميذ بين يدى أستاذه متطلعا الى الاستفادة من بحر علمه. وصادف وقت حضورها في طهران اجتماع الاحباء على عقد مؤتمر عام في بيداء بدشت وفيها حطوا الرحال ونصبوا الخيام، و(بدشت) بلد معروف بجودة الهواء بين خراسان ومازندران وكان الغرض من الاجتماع هناك أمرين (الاول) طريقة انقاذ الباب من اعتقاله (الثانى) مسألة نسخ الفروع الاسلامية. فدارت مذاكرات المؤتمر حول هاتين النقطتين لان حضرة الباب كان مسجونا في قلعة «ماكو» وكان حضرة بهاء الله والطاهرة على اتصال بالمكاتبة معه. ويفهم من توقيعاته أن الوقت

كان وقت الحركة والتبليغ واتمام ما هنالك من الخدمات وأن الصمت والسكون لايجوزان بحال من الأحوال وكانت تكاليف الأمر الجديد غامضة على كثير من الاحباء حتى ذهب فريق منهم الى أن الحركة تابعة للشريعة لاسلامية وتمسك البعض الآخر بانها أمر مستقل. ولماتم اجتماع الاحباء في بدشت شرعوا في البحث وكانت مجالسهم منقسمة الى طبقتين: الاولى الطبقة الخاصة بكبراء الأصحاب وعظمائهم، والثانية المجالس العامة يخطب فيها فرد من الاصحاب المعروفين. وقرر قرارهم على إرسال المبلغين وحشد الاحباء قريبا من ما كو حتى اذا تم منهم عدد وفير طلبوا من الشاه الافراج عن الباب فاذا لبي الطلب فبها والا أنقذوه بالقوة. وأما فيما يختص بالمسألة الاخرى فقد اختلف فيها الاحباء وانقسموا الى فريقين كما تقدم وكانت الطاهرة من الفريق الذي يرى جواز تغيير الشريعة بالاحكام الجديدة، وصممت لذلك على تفهيم هذا لجميع الاحباء وكانت تقول (أن هذا العمل سيبرز الى ساحة الوجود لامحالة، وسيطرق هذا القول أذن العام والخاص. فكلما اسرعنا في الكشف عن هذه الغوامض كان أليق وأوفق وأنفع للامر وللعمل الذي سنقوم به حتى ينفصل عنا كل ضعيف لايحتمل التجديد ولا يبقى معنا الا كل قوي مخلص يفدي بنفسه هذا السبيل القويم البديع) وشرعت الطاهرة في تفهيم الاحباء حقيقة المقصود وكشفت عن السر المكنون من تبديل الفروع وتغيير الاحكام ونطقت بلسان فصيح كاشفة النقاب بادية الجمال صائحة (لقد ظهر الحق الموعود وتجددت الامور ومضت العوائد القديمة وانتهت وظهر الصافور العظيم والصور الذي ينتظرونه هو هذا النداء الالهي فلماذا أنتم نائمون؟ انتبهوا من فراش رقادكم، قد ارتفعت الشمس من ربيع الازلية. لماذا استغرقتم في بحور المادة وقد ظهر مالك الاقتدار؟! أنظروا الى هذا النور المبين واستمعوا لتغنيات هذا

العصر الجديد الذى نفث روح الحياة الجديدة فى جميع الموجودات وهبت نسائم الفضل والجود ونفحت نفحات الفيوضات الالهية عليكم أجمعين) ثم تلت سورة القيامة فخضع الكثيرون وابتدأ غيرهم يصيح وقطع أحدهم حنجرته والبعض قاموا بالسب

وانقسم الاحباء الى فريقين : فريق أعجب بافكارها ، وآخر انتقدها . وفى آخر الامر تداخل حضرة بهاء الله فى المسألة وهدأ روع الجميع ، وأمر باحضار المصحف الشريف وتلا سورة الواقعة وأخذ فى تفسيرها وتأويلها وأفاض فى شرحها وبيانها حتى اطمأنت قلوب الجميع وعلموا بانه لابد من وقوع هذه الواقعات وحدوث هذه الحادثات كلها

كانت قرة العين فى جميع أدوار حياتها فى غاية الشجاعة ، لم يحصل لها فتور ، واخيرا أمرت الحكومة بحبسها وابقائها وكانت تنادي فى الحبس وتهدى النفوس ، واخيرا حكموا عليها بالقتل ، ومع انها كانت فى جميع ايام حياتها لاتفكر مطلقا فى الزينة كعادة النساء الا أنها في يوم شهادتها تزينت ، فاحتار الجميع فى أمرها وسألوها لماذا تنكرت ايتها السيدة فى الزينة خلافا لعادتك؟ فقالت « لانى اليوم عروس » وصارت تمشى فى الجنينة بغاية الوقار والسكون. فقال الجميع لابد وانه قد أتى يوم شهادتها وحانت ساعة قتلها . ولكنها كانت تنادي وتقول: انى صرت الصافور العظيم المذكور فى الانجيل الجليل . وعقب هذه الحادثة اخذوها ليلا وطرحها قاتلوها فى البئر بعد أن خنقوها فى وسط الجنينة . وبذلك فازت بالشهادة العظمى

عبد الجليل سعد

(المصور) ـ صممنا على أن نقفل هذا الباب . والمصور تحترم المعتقدات بقدر ماتقدس حرية الرأى .

قصة

العلم والفن !

التقت عيناها بعينيه فخفضتهما وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل . فجذبت الفراء على كتفيها حتى غطى جانبا من وجهها ، ثم انسلت مسرعة إلى الخارج . فاقتفى أثرها وهى تتلفت وراءها الفينة بعد الفينة فتلتقى أنظارهما . فلما وصلت الى الباب وقفت تنظر اليه كأنها تتحداه ، واقترب هو منها فابتدرها بقوله :

ــ لقد رأيتك

ــ رأيتنى ماذا ؟

ــ رأيتك وأنت تضعينها فى جيبك ، فبدت كأنها مرتاعة وتغير لون وجهها بين الحمرة والصفرة والبياض كما تتلون الحرباء . ولكنها تصنعت الجلد وقالت :

ــ لا أفهم شيئا مما تقول !

ــ رأيتك تسرقين تلك الزمردة ..

ــ يظهر أنك كنت فى حلم !!

ــ كلا ياسيدتى . . انى متيقظ جيدا ، وخير لك أن ترجعى الزمردة لصاحبها

ــ وأى شأن لك فى هذا ؟ هل أنت بوليس سرى ؟

ــ لست بوليسا ولكن البوليس قريب منا على كل حال . .

فأدارت بصرها ملتاعة ، ولحظ هو ذلك منها فرمقها شذرا وقال مستثنيا :

ــ وها أنذا سأدعوه . .

فمدت اليه يدها جزعة منتفضة وقالت :

ــ بالله عليك لاتكن قاسيا الى هذا الحد !

فحدق فيها تحديقة خبير ناقد ثم قال لها بصوت خفيض :

ــ اننا واقفان هنا فى الطريق فلانستطيع أن نتحدث فى هذه المسألة الدقيقة فى مكان كهذا . فهل تريدين أن تصحبيني الى منزلى عسانى أجد لك مخرجا من المأزق الذى ألقيت بنفسك فيه ؟

فغمزت بعينها وقالت ــ واذا رفضت أن أذهب معك ؟

أجابها ـ البوليس و . . .

فقاطعته ـ إذن هيا بنا . . (وابتسمت ابتسامة مريرة وهي تقول) هل أعتبر نفسي تحت القبض ؟

فأجابها متعضا ـ لقد اخبرتك أني لست من رجال البوليس

ونزلا فاستقلا سيارة دون أن ينبسا بكلمة . . واستمسك كلاهما بالصمت واختلاس النظر من بعضهما حتى أصبحا داخل مسكنه ، فوقف تجاهها وبادرها من فوره قائلا :

ـ أظن ان الافضل أن نتكلم ، على المكشوف ، كما يقول المثل . . لماذا سرقت الزمردة ؟

فأجابته في جرأة ـ لا أريد أن أخبرك بشيء !

ورد عليها بهدوء ـ ولكنك ستخبريني على كل حال !

فهزت رأسها الصغير بعنف ضاغطة بأسنانها على فكيها قائلة ـ أي حق لك في أن تلقى على هذا السؤال ؟!

قال ـ لأني أنا الذي رأيتك ترتكبين تلك الفعلة

قالت ـ اولى لك ان تعنى بشؤون نفسك اذا كان لديك ما تعنى به من الشؤون خير من ان تتدخل فيما لايعنيك

قال ـ أشكرك على نصيحتك الثمينة وأؤكد لك انى من أجل العناية بشؤوني قد طلبت اليك ان تصحبيني الى هنا

ثم سكت هنيهة ولم تنطق هي بحرف كذلك بالرغم من الدهشة التى كانت مستولية عليها . . ثم استئنف هو قائلا :

ـ أود أن استبقيك هنا بضعة أسابيع قليلة . .

فلم تستطع كظم دهشتها وارتفع صدرها بين الشهيق والزفير وهي تجاوبه :

ـ يظهر انك مجنون ! (وابتعدت ذلك بصوت خفيض) وفضلا عن ذلك فاني مخطوبة !!

فما كاد يسمع هذا منها حتى انفجر من هدوئه الذى لازمه حتى هذه اللحظة وقال بصوت دوى في ارجاء المكان :

ـ لست ابالى بشيء ، من هنا فانا انما اريدك من أجل قوامك المعتدل وجسمك البديع

ـ هذا مستحيل لانى مخطوبة لغيرك ! !

ـ انا لا يهمني من أمر خطيبك شيء ! وانما يجب ان أوضح لك المسألة لئلا تسيئي فهم قصدي . . فأنا لست اريدك لأني . . احبك . . أو أي شيء من هذا القبيل . . كلا . لكني اريد أن أرسمك

ــ كلا ، ولا هذا أيضا !

ــ ولكني سأدفع لك ثمن الصورة . .

ــ تدفع لي !

ــ نعم ، سأدفع ثمن الزمردة التي . . سرقتها . . مضافا الى ذلك سكوتي عن التبليغ ضدك بشأنها

فأصاب هذا الكلام المدف . . وسادها السكون برهة غير قصيرة . . ثم قالت :

ــ وماذا تطلب مني ان أفعل ؟

ــ إما ان تقفي أو تجلسي أو تضطجعي بينما أقوم انا برسم الصورة

(برهة صمت أخرى)

هي ــ وبأي ثياب تريد ان ترسمني ؟

هو ــ بالثوب الذي اختاره لك . . أو . . بلا ثياب

فارتعشت جفونها ، وعاود لون الارجوان وجهها ، واطرقت مستحيية وهي تقول :

ــ ومقابل هذا . . ؟

قال ــ سأدفع ثمن تلك الزمردة للجواهري . . صاحبها . . فاني أعرفه معرفة وثيقة تضمن لي سكوته ما دمت سوف ادفع له ثمنها . . وفوق ذلك فان أحدا لن يعلم من أمر هذه الحادثة شيئاً

قالت ــ لكني لا استطيع ذلك لأنني . . .

فقاطعها بصوت خفيض كأنما يحدث بنفسه :

ـ لعنة الله على السجن ، ما أقذره لاسيما لسيدة ظريفة مثلك . . بل أن . . .

فمدت ذراعها تكفه عن متابعة حديثه قائلة في استسلام :

ــ كفى . كفى . . لقد قبلت ما دام لا مناص من القبول

ــ الحمد لله ! هيا بنا اذن نكتب عقد الاتفاق

ثم تناول ورقة وقلما فكتب العقد محدداً مدة العمل بثلاثة اسابيع ، وبعد أن فرغ من كتابته قدمه لها لتوقع عليه ، فتناولته من يده وقرأته ثم قالت :

ــ ألا تكفيك كلمتي بأني قبلت حتى تريد أن ترغمني على توقيع هذا العقد ؟

أجابها ــ لست أشك مطلقا في قيامك بعهدك واحتفاظك بكلمتك . . ولكن هذه هي الطريقة العملية للمعاملات

فتنهدت تنهيدة خفيفة وتناولت القلم بيد ثابتة ظاهر عليها حسن الاعتياد على القبض على ناصيته ووقعت به اسمها واضحاً جلياً « ميليسنت باتون » . ثم تناول هو منها القلم بدوره ووقع به « جورج ايفرتن » ثم قال :

ــ أهنئك يامس (آنسة) باتون وأشكرك . . والآن أرجوك أن تحضري الى « الاستوديو » (صالة التصوير) في الساعة العاشرة من صباح الغد . وهاك العنوان

فتناولت منه ورقة العنوان وغادرته خارجة وصدرها تختلج به مشاعر متباينة متضاربة وتركته مفكراً متأملا في الفرصة السعيدة التي ألقت في طريقه هذه المرأة الباهرة . وهو حين وقع بصره عليها لأول مرة أخذ بجمالها الفتان ليس كما تؤخذ نحن الرجال العاديون ! وإنما كما يؤخذ الفنان ويبهر حين يقع على ضالته . . فهو منذ رآها تخيل فيها الصورة التي اذا أخرجتها ريشته على حقيقتها لوقف كل من رآها تجاهها محتبس النفس طربا وإعجابا . . وهاهي ذي قد وقعت في فخ كأنما قد نصبه لها شيطان الفن ! !

وكانت نقرتها في صبيحة اليوم التالي على باب الاستوديو رقيقة مترددة ، ونظرتها حيية حائرة . .

قال لها ايفرتن ــ تكرمي بخلع ثيابك خلف تلك الستارة يامس باتون والبسي هذا .

وكان هذا ثوبا حريريا شفافا تكاد العين تخطئه وتنكر وجوده إذ يبدو ما تحته واضحاً جلياً بغير ما حجاب ، وهو شبه في طرازه الثياب التي كانت تلبسها غانيات اليونان والرومان في الأزمان الغابرة . . فنظرت اليه الفتاة نظرة فزع ولكنها لم تلبث ان اختفت ــ دون أن تنبس ببنت شفه ــ وراء الستارة ثم عادت بعد هنيهة إلهة من آلهة الجمال ، جديرة بأن يسجد عند قدميها عشاق الفن الجميل

حتى ايفرتن التي كانت صورتها مطبوعة في خياله لم يستطع حين رآها على تلك

الصورة الالهية إلا أن حياها بتوهج وجنتيه - إن صح التعبير ! - و بريق فى عينيه ، لاسيما حين وقع بصره على وجهها وعنقها ونهودها

وبينا هو يفحصها بنظره فحصاً فنياً ليقرر الوضع الذى يرسمها عليه قال لها :

— لاتخجلى منى فانى فنان وحسبك هذا ، وفضلا عن ذلك فليست هذه بالمرة الأولى التى تأملتك فاحصاً هكذا . . .

فحدجته بعينيها الصافيتين بنظرة مستفسرة ، فاستتلى قائلا .

— نعم ، لقد رأيتك وأنت فى عشتك فى الصيف الماضى على شاطىء البحر ، وكنت تحسبين نفسك وحيدة بينما كنت أنا أختلس النظر اليك - بعين فنان من فضلك ! - من ثقب فى العشة

فالتهب جسمها بمد من القرمز لدى سماعها تلك الذكرى . . ولكن الرسام كان ينظر اليها الآن . ولقد أنساه فنه نفسه بل جرده منها ! !

ووقفت الفتاة لاتبدي حراكا كأنما هى واقفة أمام الابدية بينما جعل الرسام يخطط بسرعة فائقة بقطعة من الفحم الرسم الكروكى وهو لاينفك يلقى عليها النظرة تلو النظرة بعينين كأنهما عدستان تنقلان ماتقعان عليه نقلا دقيقا على لوحته

وبعد برهة أدركته عليها الشفقة ، فتعطف قائلا :

— لقد جعلتك تقفين طويلا فى هذا الوضع فاستريحى الآن قليلا !

فطرحت نفسها فى مقعد وهى تتلوى وتفرك فخذيها وساقيها بيديها لتلين عضلاتها المتألمة

ما أحلاك ياميليسنت وما أبدعك ! نهود بارزة ، وصدر عاجى ، وأعضاء ملفوفة متناسقة ، وبشرة ملساء فى لون القشدة ، وفم ناضج مترجرج . وجه افروديت ولكنه ملىء بحرارة الحياة !

ولقد مدت بصرها وهى جالسة فى مقعدها نحو الصورة السريعة التى رسمها لها فلم تستطع هى نفسها إلا أن عجبت كيف يكون لها هذا الجمال الكامل ! وجعلت تسائل نفسها عما اذا كانت جميلة حقا بهذا المقدار ! ؟ وهل هى . . .

ولكن الرسام قطع حبل تفكيرها قائلا :

— هلمى الى عرشك ثانياً يامس باتون

فنهضت متثاقلة وعادت الى موقفها واقترب الرسام منها وراح يقلبها ذات اليمين وذات الشمال ، يلوى رأسها تارة و يعدل كتفيها تارة اخرى وهو لايبدو عليه فى كل هذا أى أثر من الحس الجنسى حتى لكأنما التى يقلبها قطعة من خشب أو مطاط وليست التى يجرى الدم فى عروقها حارا !!

وما من وضع يخطر ببال مصور سواء أكانت واقفة أوجالسة أو مضطجعة إلا استعرضها فيه . . تارة شامخة بأنف المنتصر . . . وأخرى قابعة تنوء بالهزيمة . . . وطورا تصوب من عينيها سهام الاغراء والفتنة . . . وآنا مفكرة متأملة . . . وما لايعد ولا يحصى من مختلف المناظر والمظاهر ! !

ومضى اسبوعان وبدأ الثالث والنموذج مستسلم ! ولكننا تبدو عليها بين آن وآن علائم قلق متزايد ، فيسألها إيفرتن بغير اهتمام :

ــ هل هناك شيء يزعجك ؟

ــ كلا . . المسألة بسيطة . . اشكرك

ــ ولكن هناك ، مسألة ، على كل حال . . فهل يمكنك ان تخبريني ماهى ؟

ــ إن خطيبي سيحضر فى هذا الاسبوع

ــ وماذا يهم ؟ ؟ دعيه يحضر ! !

ــ لكن . .

لم يهتم إيفرتن بمعرفة ماوراء هذه الا لكن . . . ، وذهب احتجاجها صرخة فى واد . . ولكنهما حين جلسا لتناول طعام الغذاء فى الاستوديو حيث كان ايفرتن قد أعده فيه توفيرا للوقت ــ ذكر الحديث الذى دار بينه وبينها حول خطيبها فسألها قائلا :

ـ لقد كنت تكلمينى عن خطيبك هذا الصباح ؟

ـ نعم ، فهو حاضر فى هذا الاسبوع

ـ وبعد ذلك ؟

ـ افضل أن لايرانى على هذه الحال أو يعلم انى .

ـ ولماذا ؟

ـ أولا هو ليس فنانا ليقدر الموقف ، وفضلا عن ذلك فان آراءه رجعية قديمة . .

- فليذهب الى الجحيم اذا شاء !! لاتكلميني ثانية عن هذا الـ . . .

- الحق انه رجل طيب ولكنه . .

- لكنه ماذا ؟

- يثور ثائره اذا عرف انى . . .

- كان ينبغي عليه أن يسجد شكراً لله الذى جعل مثل هذا الجمال (مشيراً اليها) ملكا له.

- بالطبع هو يحبني حباً جماً ولكن . . .

- بالله دعينا من هذه اللكنات (جمع لكن) وهلمى بنا الى العمل

- لقد ظننت انك ستصنع لى صورة كبيرة مثل . . .

- ستكون الصورة كبيرة بالطبع ، وسأبدأ فى عملها منذ هذه الساعة

وقام فسحبها من يدها وذهب بها الى اريكة أجلسها - أو أضجعها على الاصح - عليها وراح يلويها ويعدلها و يدفعها ويجذبها حتى استقر على الوضع الذى راق له فقال لها :

- عليك الآن أن تصمدي على هذا الوضع كما لو كنت قطعة من الأريكة .

ثم تركها وذهب الى مكانه أمام لوحة الرسم ، وراح يشتغل كما لو كان على بعد مليون ميل منها ؛ لولا عينيه اللتين كانتا ترسلان النظر الى كل عضو من أعضائها وضلع من أضلاعها حتى يكاد ينفذ الى صميم قلبها.

ومضت بضعة أيام وذلك الوضع لما يتغير وايفرتن مشتغل بهمة فائقة ونشاط عظيم ، أما هى فقد برح بها الألم الى حد انها كانت تعاف أن تنظر الى التقدم المطرد فى صورتها يوما عن يوم !!

وأخيرا قال لها ذات صباح :

- أظن انى سأنتهى من الصورة قبل نهاية مدة العقد

فاجابته - يسرني أن أسمع منك ذلك ، فقد كلمني خطيبي بالتليفون قائلا إنه سوف يحضر مساء اليوم ، ولست أريده أن يعرف شيئا عن هذه المسألة.

قال ايفرتن - دعينا بالله من هذا السخف والهراء !!

ولكن خطيبها لم يلبث أن أحاط بكل شىء خبرا !! فهو قد وصل فى قطار سابق للقطار الذى أعلنها بأنه سيصل فيه .. فلما ذهبت ميليسنت لتقابله على رصيف المحطة فى

الموعد الذى حدده لها ، كان هو يقرع باب الرسام ايفرتن ، إذ كان قد علم من جيرتها بأنها تقضى معظم نهارها كل يوم لدى ذلك الفنان ليرسمها ، وما أن فتح له ايفرتن الباب حتى حياه باحتشام سائلا عن خطيبته فأجابه ايفرتن :

ــ كلا ياسيدى ان الآنسة باتون ليست هنا الآن

ولكن نظر خطيبها وقع على عدة صور لها فى كل مكان ؛ ولم تكن صورة واحدة من عدة نسخ ، بل كانت عدة صور فى أوضاع مختلفة : هذه تظهرها من الجانب الايمن، وتلك صورة مواجهة ، وغيرهما وهى مضطجعة تستعرض ليونة خصرها . ورابعة مفترة الثغر عن ابتسامة ساحرة غاوية .. الى غير ذلك من الاوضاع الكثيرة حتى زحمت بصورها جميع انحاء الاستوديو .. فوقف خطيبها ذاهلا مبهوتا .. وفرك عينيه متوهما أنه فى حلم ! ولكن صوت الفنان لم يلبث أن صادمه على حسه باليقظة . وقال ايفرتن:

ــ هل هناك شىء من الخطأ ؟

ــ شىء من الخطأ ! كلا ، بل ان كل شىء هنا خطأ فى خطأ ! اللهم اخزك يا ابليس اللعين ! ماهذا كله ياسيدى ؟؟

ــ جمال فاضح !!

ــ كذلك هو خش فاضح ! بل ان هذا الاسم هو الاصح لهذه المجموعة المتهتكة .. ولكن قل لى ياسيدى: كيف تبيح لنفسك أن ترسم لهذه السيدة مثل هذه الصور المنكرة ؟

ــ هذا من شؤونى أنا و . . .

ــ وهو وأيم الله من شؤونى أنا أيضاً ! لابد لى من أن أحل هذه المسألة !

وقد قال جملته هذه الاخيرة وهو مندفع خارجاً من « الاستوديو » كالوحش المفترس إذ يهاجم غاضباً . .

***

ويدهى أن الخطيب وخطيبته (مس باتون) تحادثا مليا فى تلك المسألة بدليل أنها عندما حضرت فى صبيحة اليوم التالى الى « الاستوديو » كانت متجهمة الوجه ، بادية التفكير ، ولم تكد تحتويها الغرفة حتى قالت :

ــ لقد قال لى انى اذا وقفت لك مرة ثانية فأنه سوف يفسخ خطوبتنا

قال ايفرتن ــ إذن أظن أنه يمكننى أن أكمل الصورة بدونك .. فيمكنك أن تذهبى الآن إذا شئت

فكان جوابها أن جرت مسرعة نحو الستار واختفت وراءها برهة ثم عادت .. عارية ... وأخذت موقفها المعتاد ..

ولما أتمت يومها قالت :

ـ ليفعل (خطيبها) ماشاء الآن . فقد انتهيت منه ؟

وكأنما بهذا التصريح قد صوبت تياراً كهربائياً فجأة نحو الرسام ، فقال متلعثما :

ـ حقاً إنك .. أريد أن اقول لك أنى أشعر نحوك .. مدين لك . بالشيء الكثير!

والظاهر أنها هي قد ارتبع عليها من غموض الموقف ، ولم تدر ماتقول ، فسكتت وساد الصمت بينهما برهة الى أن قطعه الرسام قائلا :

ـ تعالى وانظرى نتيجة عملنا .. أؤكد لك أنك ستغتبطين لهذه النتيجة ، فانت على ما أظن لم تبالى أن تنظرى يوما الى هذه الصورة !؟

فهالت وهى مازال جالسة على عرشها ونظرت الى الصورة الفنية الرائعة . فما كادت تستوعبها حتى صاحت صيحة فرح عظيمة قائلة :

ـ يالله لما أجلها ! ولكن . مستحيل أن أكون أنا صاحبة هذه الصورة الجميلة البديعة .

فقاطعها بحرارة قائلا :

ـ انك أجمل منها بلا شك !

فأجابته ـ كلا ، بل أنت الرجل العظيم .

وكأنما خشى ايفرت أن يندفع وراء عواطفه فينسى نفسه فقال :

ـ لقد نسيت أن أخبرك .. فقد ذهبت بالامس لأدفع ثمن تلك الزمردة فقال لى الجواهرى انك قد دفعت له ثمنها فعلا قبل أن أخذتيها منه . فلماذا اذن (وهنا لان صوته وبانت فيه نغمة الاسى والاسف) لماذا اذن تركتينى أمضى فى اتهامى لك بالك .. ؟

وقطع كلامه عند هذا الحد منتظرا جوابها

فأجابت فيما يقرب من الهمس : ـ لانى ..

ولم تزد . فوضع يده برفق على كتفها ونظر اليها نظرة استعطاف لم تعهدها فيه من قبل قائلا

ـ ألا ما أخبرتنى يا .. ميليسنت ؟

فقربت فمها من أذنه وأجابت بصوت خفيض :

ـ لانى .. لانى أردت أن أكون .. بقربك .

فضمها بين ذراعيه متمتما . وان الزمرد يرمز به المنجمون الى السيار الزهرة . وهو لديهم شعار الحب السعيد .. فما أسعد هذه الزمردة !! »

قصة

عظة الدهر
أو
نزق الشباب

١ ـ الفطرة البريئة

هناك على الشاطىء الشرقي للنيل فى ذلك المكان الهادىء الجميل حيث الاشجار الباسقة والاغصان المزهرة والحدائق الغناء الوارقة الظلال ، هنالك وفي وسط تلك المملكة البديعة ، يبدو قصر أشم منيف قد كساه الزمان بجمال الطبيعة وخلع عليه الربيع حلة السعادة وأكسبه صفاء الأديم منظراً بهيجاً .

فى احدي غرف تلك الجنة الواسعة الانحاء المترامية الاطراف على احدى الارائك جلس علاء الدين ، ذلك الشاب الانيق المنظر الجميل الطلعة يترقرق ماء الحياة فى وجهه وتبتسم الطبيعة لطلعته وتنشرح الصدور لشروق محياه .

جلس كذلك يبدو على وجهه شىء من الجزع والحزن الصامت الرهيب تنتابه الهواجس وتزعجه الظنون والاوهام .

جلس آسفا حزينا جلسة الفيلسوف في صمته أو الراهب فى صومعته وقد أحزنه فراق والديه اللذين ربياه صغيرا وتعهداه كبيرا حتى شب وترعرع في احضانهما تحبوه النعمة ويسعده الشرف وتزهو لديه الحياة . ولكنها الفطرة البريئة أبت الآن تتجلى صافية نقية ممثلة فى روحها الطاهرة التي قد بعدت عن كل معانى الخداع والرياء

٢ ـ الغواية

وانه لكذلك جلست اليه أخته التى تغيب الشمس حياء لشرقها

و تذوب اغصان البان غيرة من قدها و اعتدال عودها ، و تذبل الوردة النضرة ازاء ورود خديها ، جلست اليه تسليه و تواسيه و تشاركه مافيه اذ أعلن الخادم قدوم صديقه الجديد (عزيز) فخرجت أخته واذن لعزيز بالدخول، وما أن رآه على هذا الحال حتى بدأه بنوع من التهكم والتأنيب شأن الناصح الاريب قائلا : الاتزال على ما أنت عليه من طفولة و سذاجة تحزن وتجزع ولا أرى لكل ذلك من سبب إلا انك لاتزال فى عقلك القديم ! ؟ علام تأسف وتألم وترثى وتجزع ؟ اليست هذه هى سنة الطبيعة جرت فى مقاليدها وقد أبت الآن ترحك ممن كانوا يضيقون عليك سبل الحياة الناعمة فى ظل الاخوان والاصدقاء ويحرمونك لذة الانس معهم والصفاء ؟ جدير بمثلك أن يرفل فى حلل السعادة التي حرمها طويلا وان ينتهز فرصة الشباب قبل أن ينصرم حبله ، فيتخذ من اصدقائه وخلانه أنيسا ومن أحبائه رفيقا وجليسا . و يل لمن أنعم الله عليهم مثلك بذاك المال وهذا الجمال والشباب ثم هو لا يشكر الله عليها باستثمارها و التمتع بلذائذ الحياة وسعاداتها ! !

وهنا دخل الخادم فأعلن سيده بوجود ابنة عمه فى انتظاره ، فاستأذن عزيز على أن يحضر فى الغد ، وانصرف وفى نفسه علائم مالايحبه ، ولكن علاء رأى الايضيع فرصة مالكة لبه وسالبة فؤاده تلك الجوهرة الثمينة الغالية التى كان يرى فيها كل السعادة والصفاء

٣ ـ الغرام الصادق

وماهو ان ودع صديقه حتى طار الى الغرفة التي بها حبيبته (ابنة عمه) معاً نحته وما أن وقع بصره عليها حتى بهت وقال (رباه !! ماهذا الشحوب يا أنصاف؟ أكنت مريضة أم ماذا جرى ؟) فتنهدت من أعماق نفسها ورنت اليه بطرف ساحر وقالت (كلا ياعلاء فليس شيء من هذا أو ذاك فما أمرضنى الا أنت وما أسقمنى الا جفاك ، فانت علتى وسبب دائى وفى يديك دوائى وشفائى ، لقد

عذبتني ياعلاء وتركتني أقاسي ألم النفس ولوعة البعاد، أليس لي في قلبك من شيء أو في عطفك من نصيب ؟ لولا أختك العزيزة معك في هذا القصر ما زرته ولا دخلته . فهي سلوتي عنك. لقد جئت أزوره ولاستشف من روحها ما يخفف على آلامي ويسعدني في خلوتي.) فقطعت سعاد حديثها قائلة : لا تغضبي يا إنصاف فان المسألة كما قلت لك . فاسترسلت أنصاف في حديثها قائلة (هل نسيت يا علاء العهد الذي قطعناه امام والديك رحمة الله عليهما ، انك قاس يا علاء الدين . انه لا يمر على لحظة من ليل أو نهار إلا وأنا أفكر فيك وفي السعادة التي انتظرها معك وفاء بذلك العهد الذي كاد يتم لولا القدر المحتوم الذي انقض علينا ففجعنا في عمي . لقد كان يحبنا كثيراً ويحنو علينا ويعطف اذا ما رآنا مجتمعين في الحديقة أو على المائدة . أليس كذلك ياسعاد ؟)

فأحنت سعاد رأسها علامة الايجاب واسترسلت أنصاف قائلة : (أجب ياعلاء أجب . فلقد ضاق صدري وكادت أنفاسي تتقطع حتى أراني لا أقوى على النطق ، عللني بامل أسعد به في الحياة)

فترقرق الدمع في عيني علاء وتلعثم لسانه فلم يستطع النطق حتى زفر زفرات حارة عبرت عن قرارة نفسه أجاب بعدها قائلا : لقد قتلتني يا انصاف بقارص عتابك وقاسي لومك ، ومن أدراك أني سلوتك أو نقضت العهد الذي لا تتم سعادتي إلا بالوفاء به ؟ كيف تعتقدين ذلك وأنت أمنيتي وسر وجودي بعد والدي وحياتي التي لاحياة لي بعدها !؟ من لي بعدك يا انصاف ينسيني آلامي ويرثي لحالي ويسعد لسعادتي ويشقى لشقائي ؟ كيف ذلك وقد كان ذلك العهد آخر كلمة نطق بها كل من والدينا وأهم وصية لهما ؟ أني أؤكد لك أنه مامنعني من الاسراع في التنفيذ إلا ما تعلمين من أمر وفاة والدي وما جره ذلك علي من الوقوع في مشاكل الحساب مع الزارع والمستأجرين، وعما قريب أنتهي منها ويتم حظي وتسعد ان شاء الله) . فافتر

ثغرها عن ابتسامة عذبة رقيقة طاهرة وذهب عن وجهها ذلك الشحوب الذى كاد يقتلها وقالت: (شكراً لله الذي من علي بتلك السعادة إذ قرأت فى قلبك شرف العاطفة وصدق المقال). فقال (ستحقق الأيام آمالنا قريباً يا أنصاف)

وما كاد يتم جمله حتى أعلمه الخادم بقدوم صديق روحه ورفيقها الاول محمود.

٤ — الاخاء الصافى

فأذن له بالدخول و ذهب اليه علاء. فتقابلا بشغف واشتياق شأن الأخوة الأول، وقد كان محمود رفيقه الأول وابن جاره وقد كان أعز عليه من نفسه. ولقد كان محمود هنا على جانب عظيم من شرف النفس ومتانة الاخلاق وصدق الوفاء مما جعل المرحوم والد علاء يوصى ابنه باستمساكه بعروة هذه الاخوة والصداقة المتينة، فتحادثا ماشاء لهما الحديث، وكثيرا ما كان محمود يتقدم إلى علاء بالنصح والارشاد شأنه فى كل مقابلة مما زاد رغبة علاء فيه وكان يريد ان يفاتحه في حديث الصديق الجديد عزيز وباليته. ولكنه رأى أن فى استطاعته ردعه وارجاعه بنفسه فى مقابلة الغد. وبعد ساعة قضياها فى ألذ الحديث وأهم الشئون، استأذن محمود على أن يوالى الزيارة حسب رجاء علاء. فانصرف مودعاً بمثل ما قوبل به من الحفاوة والتجلة ثم عاد علاء إلى حيث أخته وخطيبته فوجدها على أهبة الخروج فرجاها في البقاء فنزلت على ارادته ومكثوا طول اليوم فى عذب الحديث وترتيب الامور حتى أذنت الشمس بالمغيب فاستأذنت انصاف أذ لا يمكنها الانتظار لأن والدتها ف انتظارها. فاضطر علاء أن يودعها وقد أخذت معها قلبه وبات ليلته يناجى نفسه بقرب اللقاء والسعادة، كما كان حالها أيضا، حتى أصبح الصباح وابتدأ يدبر بعض الشئون التى كانت لا تزال تشغله.

٥ – الصراع بين الفضيلة والرذيلة

علم علاء بقدوم (عزيز) فقام لمقابلته فسلم عليه وفاتحه عزيز قائلا : (لعلك تكون مسروراً بلقائك ابنة عمك ، وانما أخشى أن تكون من أولئك الذين يفتتون بشيء اسمه الحب أو يقعون في حبائل المهد الذى يسمونه الزواج ؛ وما أظن المسألة إلا هذا ؛ أليس كذلك ؟) فأجاب علاء (نعم انها خطيبتي وحبيبتي التى سأسعد بها قريبا) فضحك عزيز وهز رأسه استخفافا وقال (لقد وقعت ياعلاء . . خطيبتك !! هأهأهاه . . . انك لاتزال ترسف فى قيود الرجعية العتيقة التى يعاديها العالم المتمدن . نعم انك لا تزال متمسكا بمبادىء القرون الاولى !!!)

(أنت من أنصار الزواج ؟ أنت من الذين يقيدون أنفسهم بقيد الزواج الذى هو أشبه شىء بقيد من الحرير ، إلا أنه أقطع من قيد الحديد ؟ من ذا الذى يترك التقلب في أحضان الغانيات الفاتنات يرتع بينهن وينعم بجمعهن ليكون أسير واحدة يسأمها وتسأمه ولن يجد عنها عيضا ؟ ناهيك بما يتبع ذلك من الاولاد والنسل مما يقيد حرية الانسان ويحرمه لذة السعادة فى المجتمع الانسانى ولكن على كل حال . . .) فقاطعه علاء قائلا : (انك يا عزيزى أخجلتنى تأنيبا وتعنيفا على تمسكى بمبادىء الفضيلة والسعادة الحقيقية التى ينبنى عليها اتساع العمران ورقى المجتمع وتدعونى الى هذه الهمجية البهيمية التى يقول بها اولئك المتعجرفون ممن يدعون أنهم أنصار المدنية فينفرون من الزواج ويأتون كل موبقة نتيجتها الفناء المحتم . أنا لا أعتقد إلا أن هذا كله انما هو جبن عن تحمل أعباء الحياة وتخلص من ميدان الرجولة) فتجهم وجه عزيز وقال فى حدة (فضيلة ! سعادة ! عمران ! ومن الذي قال ذلك إلا أرباب العقلية الاولى ؟ أنها كلها ألفاظ جوفاء لو فتشتها لم تجد لها مدلولا . ولقد صدق بها الانسان الاول لقصر عقله وقلة تجاربه ؛ وانى بمالى من تجارب الحياة قبلك انصح لك بنبذ كل هذه

التقاليد العمياء التى تحمل الانسان فى دنياه مالاقبل له به ولاقدرة له على حمله فثب الى رشدك واقتنع ولاتكثر على من الفاظ الرجعية التى ملتها الاسماع ولجها الذوق السليم. والآن أودعك لزيارة صديق آخر واستعد لنزهة نقضيها يوم الجمعة ان شاء الله مع بعض الاصدقاء) فقبل علاء ذلك وودعه، وبينما هو راجع اذ بصر بخطيبته فى دهليز القصر مع أخته فذهب اليهما وتحدثوا فى بعض الشئون ثم ودعته وانصرفت. ووجه علاء همه الى انجاز أعماله حتى يكون على تمام الاستعداد فى الميعاد الذى ضربه عزيز

٦ ـ الوقوع فى الشر

وكانت نزوة الشباب قد لعبت برأس علاء اذ تراه يتلهف للقاء عزيز عساه يحظى بتلك النزهة التى قد تصورها كأحسن أمنية يتمناها الانسان؛ وما هى الا دقائق حتى علم بقدوم عزيز فى جلبة وضوضاء مع بعض رفاقه فاذن بالدخول وأمر علاء الخادم باعداد المركبة ومالبث هذا أن أعلن انتظارها على تمام الاستعداد فركبوا وسارت تنهب بهم الارض نهبا وهم فى ضحك ودعابة حتى أشار عزيز على السائق أن يقف أمام قصر فخم وسط حديقة يانعة الازهار، وما علموا أن نزلوا، وما هى أن توسطوا الحديقة حتى قابلهم خادم حيث قادهم الى حجرة كان فى انتظارهم على بابها عدد من الشبان فدخلوا الحجرة التى قد توسطتها مائدة صففت من جميع الصنوف والاشكال من طعام وشراب فأذن لهم بالجلوس فالتفوا حول المائدة وبعد أن تم التعارف ابتدأوا فى الطعام والشراب وانزعت الكؤوس ودارت الاقداح ووزع الحباب بين الاحباب، ومازالوا كذلك حتى لفت الخمر برؤوسهم فقاموا ثملين يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار ويترنحون بالاصوات المزعجة التى تنفر منها النفس وتصم الآذان مما هيأته لهم الراح، وقد ذهبوا الى حيث يقضون يومهم وليلتهم بين الغانيات وفى أحضان المومسات حتى أطلت عليهم كاشفة الفضائح

من بين الستائر والمنافذ فراحوا الى منازلهم فى غاية الضعف والاعياء وفى جملتهم علاء الدين الساذج الذى خدعته الغواية وأضله اخوان السوء فانغمر فى لجتهم وأفاض من حيث أفاضوا وانغمس فى الشهوات والملاذ فكان من الضالين ولقد تبعه هؤلاء الاخوان حتى تمكن الشر من نفسه فصار لايهدأ له بال ولا يقر له قرار الا اذا كان بينهم أو فى مجلس الشراب والشباب هكذا ، سيما وقد كان فتنة القلوب بمنظره ، اذا صار ملك القلوب والافئدة و زاغت فيه الاعين والبصائر فلذت له هذه الحال وطاب لديه هذا النوع من العيش والتف حوله عدد من النسوة اللاتى فتن بماله وجماله فكان يغدق النعم و يكثر العطايا و يبذر المال بذرا ودأب على هذا الحال مدة غير مبال بما يجره عليه كل ذلك من اتلاف فى الصحة وضياع لما خلفه له والده مما كان لا يأتى عليه عد ولا تفنيه السنون ولما لم يجد لديه من المال من اراده طلبه ، اقترض وما أسهل القرض على مثل هذا وسار أرباب الشهوة فى جمع المال من غير الطريق الشرعى فى أثره يمدونه بكل ما يطلب حتى أصبحت تلك الثروة الطائلة مهددة بالفناء .

وظلت المسكينة ابنة عمه وخطيبته تزور المنزل كل يوم تقابله فتبث اليه بعض النصيحة علمه يرتدع فما كانت تجده الا فى حالة سكر عميق أو بين هؤلاء الاشرار ، بل لقد كانت رؤيتها له تزيدها ألما على ألم وداء على داء فكانت تركن الى ابنة عمها يتشاكيان ويتباكيان حتى أذلهم الخطب وفدح ولا من نصير ولقد كان محمود الطيب القلب يكثر من زيارة المنزل علمه يقابله على انفراد ساعة أو يستطيع أن يحول بينه وبين هذا التيار فما كان يوفق ولا يستطيع ذلك

٧ـ الخطر المحدق

الى أن كان اليوم التاسع من الشهر الثالث عشر من تاريخ تلك النزهة المشئومة اذا برجل من رجال القضاء يحمل ورقة قدمها للبواب وأخبره أنها

انذار لسيده ان لم يدفع المبلغ فى ظرف أسبوع تكون جميع أملاكه معرضة للبيع للوفاء به . فحملها الخادم الى سيدته أخت علاء وما أتت على ما فيها حتى صعقت المسكينة وسقطت واهية القوى فى حالة اغماء شديد وما كاد الخادم يتوسط الدهليز حتى رأى المسكينة إنصاف فأخبرها بالخبر فسارت الى أخته علها تقف على الحقيقة وما كادت تطأ قدمها الغرفة حتى فزعت وأسرعت الى عمل الاسعاف الممكن حتى أفاقت المسكينة سعاد وجلسا الى بعضهما وما هى الا هنيهة حتى أخبر الخادم بقدوم الصديق محمود فبانا نجيبه ؟

وبينما محمود فى انتظار الخادم اذ أبصر عربة علاء على بعد تكاد تشق أجواز الفضاء فانتظر وبعد لحظة وقفت العربة ونزل منها المأفونون يحملون علاء على أيديهم كالجثة الهامدة وطاروا به الى حيث غرفته حيث وضعوه على سريره ولاذوا بالفرار . كل هذا ومحمود مبهوت لهذا الحادث وقد علم بحادث الانذار فاشتدت آلامه . ولكن لابد من الاسراع الى الانقاذ فأخبر الطبيب عن المسألة .

٨ ـ النجاة

وقصد محمود الى علاء فى غرفته وكانت بها الأخت والخطيبة فتراجع قليلا وما هى الا لحظة حتى حضر الطبيب وبدأ يفحص المريض والكل من ورائه فى حالة سكون ووجوم ينتظرون الرأى الأخير ، الى أن رفع الطبيب رأسه قائلا لاتخافوا فالعاقبة سليمة ان شاء الله . انه مغمى عليه على أثر افراطه فى الشراب ويظهر انها انقلبت حمى وسأنظر . وعاد الى الفحص وعمل الاسعاف وهو يقول : لاخوف اطمئنوا . حتى عاد المريض الى الحركة والتنفس الى حد ما ولكنه لايزال فى غيبوبته وهكذا لبث المسكين يعانى ألم الحمى وأمراضا أخرى

خطيرة شنيعة . كادت تفتك به لولا العناية الآلهية التي انقذته لأخته وخطيبته ولولا مساعدة ذلك الصديق الحيم الذي لم يكفه أن يلاحظ حالته الصحية بل أنه بهمة وحزم عالج المسألة المالية بعناية وحرص . وظل يتابع المسألة بدقته ومهارته وظل المسكين علاء أياما لايعي فيها شيئاً الى اليوم السادس حيث انتبه ووعى مابجانبه ومن يقوم بحراسته وما يجرى حوله فكان كلما نظر يبكي وينتحب وهما يهونان عليه ويهدئان من روعه وكلما رأى محمود يتمنى ان لو عادت اليه صحته فيخر راكعاً لصديقه الذي خدمه لالمأرب أو لغاية

الى أن كان اليوم الخامس والأربعون واذا به قد تماثل للشفاء ونهض واقفاً مستغفراً منيباً الى ربه تائباً عن جميع ذنوبه طالبا منهم الصفح عنه وهم يحمدون الله على تماثله للشفاء ويهنئونه بذلك واذا بالخادم يعلن قدوم الصديق محمود وما كاد علاء يراه حتى جرى نحوه مستغفرا قائلا أنقذت حياتي فبماذا أكافئك ..

الخاتمة

فقاطعه محمود (لاشيء ياأخي فما فعلت غير الواجب وما جئت إلا لاهنئك على أن آخر قسط من ديونك قد دفع اليوم ولم تخسر سوى جزء يسير جدا من ضيعة كذا ، فدهش علاء دهشة الفرح وقال (الآن وقدعصيت وكنت من الخاسرين فلا تضرن عن سيئاتي ولاستغفرن ربي ولتفرضوا على ماشئتم فلكل منكم حياتي فاقتسموها فأنا من الطائعين .

فأجابه محمود (لاشيء ياعلاء مطلقا ولا تحمل نفسك أكثر مما يجب وليس علينا جميعا إلا أن نحمد الله على ان زالت تلك الغمة التي نكدت عيشتنا جميعاً غير أنني أرى أن الانصاف أن تفيء الى أنصاف) فاحمر وجهه خجلا وسكت . فردت أنصاف قائلة (وانى أرى ان الاجدر بمحمود ان

ينال سعاد وما أرانى خاطئة فى هذا ولا أظن علاء . أو سعادا تمانع فذلك هو هو المرام . فاغضت سعاد حياء . ولكن علاء صاح قائلا الرأي ماقلت يا انصاف محمود أهل لها ولامراء . ثم ساد السكوت مدة وعلامة الرضى والارتياح من الجميع وشمل السرور القصر من جميع نواحيه وأعلنت الخطبة لكل من الزوجين وبعد أيام تم الزفاف فى حفلات الانس والسرور بين جميع الأهل والاحباب ولم يغب منهم أحداً فكانوا سعداء الى الابد .

م — س

لذة العمل

إن البهجة والغبطة اللذين نشعر بهما بالعمل الذى نؤديه ليسا شيئا مفرحا فقط ، وانما هما وسيلة وعون لنا لنسير فى عملنا نحو الكمال

والحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنه ليس من انسان يستطيع أن يؤدى عملا متقنا اذا لم يشعر باللذة فى ادائه

ان التذاذ الانسان بعمله هو بمثابة آلة الصقل . صحيح إن العمل قد يتم بدونها ولكنه يكون عملا ابتر ، مظلم ، خاليا من كل رواء وبهجة

القصة

مناظر الحياة

عند ما يجلس المتفرج فى الصفوف الامامية يستطيع أن يشاهد عن قرب كل ما يجرى على المسرح من صور ، وحينئذ يشتغل عقله بدراسة الصور التى تمر عليه من كل فج ، ويرى بعينه ما يستثيره أصحاب هذه الصور من عجيج فى الحياة

فهنالك أناس لا هم لهم إلا ملء بطونهم بألوان الطعام والشراب ، وغيرهم يقاسون أهوال هوى مبرح أو يلهون بخداع حب مزيف ، والضاحكون ، والباكون ، والمغرمون بالتدخين ، والمراؤن ، والمتنافسون ، والراقصون والزامرون ، كما أن من الناس من يطرب بالجدل والنقاش فى غير ما جدوى ، وآخرين يجعلون همهم اصطياد المرأة ، واللصوص وقطاع الطرق والنشالين وبعضهم يزاول مهنته فى الحياة تحت انظار البوليس الواقف للمراقبة ، وثم نصابون (نصابون أهون منهم الوباء والطاعون !) ودجالون قوالون غير فعالين أو يقولون ما ليس فى قلوبهم ، ومن الناس من يضع بفتات الموائد دون أن يطمع فى أن تكون له مائدة .. وإن هؤلاء جميعاً يؤلفون « سوق الرذيلة » ، وهذا هو الضلال بعينه : إن العالم ليعج بضحك خير منه البكاء !!

أنظر الى الممثلين على مسرحها ، الجادين منهم والمجانين ، حين يفرغون من عمل يومهم ويعودون الى بيوتهم : تجد زيداً الفرد ينفض عن نفسه غبار الشقاء — مشقة العمل — أولا ثم يجتمع آل البيت (الزوجة والابناء) ليتناولوا الطعام الذى لبث ربهم طول النهار أو الليل كادا فى سبيله ، فما يكاد يحتويه كرسيه حتى ينتقل بوجهه نحو كل فرد من العائلة ملقيا على الجميع سؤالا واحداً هو : كيف حالك؟

تصور الآن أن هذا الرجل الذى يدخل بيته مستبشراً متهللا على هذه الصورة غير عابىء إلا بما يعود عليه وعلى آله بالغبطة والراحة . يكون ابنه اليافع قد هام بحب غادة ساحقة قلوب ، أو شغفت بنته بهوى لعوب . فلاشك أن السعادة المخيمة على هذه العائلة فى الظاهر تكون زائفة فى الحقيقة ، ولا تلبث سحابة الهناء حتى تكشف عن أمور

أقل مافيها أنها تحمل المفكر على التأمل العميق ..المضطرب .. حتى لقد يتناول كتابا للطالعة أو يقبل على عمل يؤديه يريد أن يدفع عن نفسه التأمل ، فما يستطيع إلا أن يبرح متأملا

ليس النظر الى الحياة بالمنظار المكبر حكمة أكثر مما سلف . و إن كان هناك أحد لا يرى فائدة مطلقا من عرض هذه الأسواق ، أو ممن ينكرون بتاتا تخلق أحد من حاشيتهم وبطانتهم وأهليهم بغير الفضيلة ـ فسواء أكان أولئك أو هؤلاء صادقين أو مخطئين ، فان هناك كثيراً من الكسالى ونفراً من الأسخياء وطائفة من أصحاب المزاج التهكمي لايصدقون ذلك ،وقد يكفيهم بعض الساعة فى مشاهدة الأدوار التى يقوم بها أولئك الجاحدون المنكرون للحوادث ليروا خلالها مناظر شتى . يرون من خلال مناظرهم المشاحنات المختلفة التى تنشأ بين أفراد المجتمع الواحد ـــ وبين هـــذه المشاحنات ـالكبير والصغير ـ فمنها مايرجع سببه الى تنافس فى ركوب الخيل ، ومنها تناحر على أمور أعلى وأقرب أثراً فى الحياة ، كما أن منها مالا يعدو النظرات المتبادلة كأن يغتبط ولمناظرة عطف من أليه فيغضب لذلك الآخر ..

هذه المناظر جميعها يشاهدها المؤلف القصصى على ضوء مصباحه اللامع ظاهرة جلية أكثر مما يراها المشاهد العادى .. وكل له منظاره

فاذا كان الأب مرآة الحياة فان القصـة منظارها ، وبغير المنظار لانرى عيوبنا لنداويها ، وأمراضنا لنعالجها ، حتى تظهر الصورة المنعكسة على المرآة صافية

